
القافلة
رَجَب ١٤٠٧هـ/ مَارس ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة

THE CARAVAN MARCH 1987

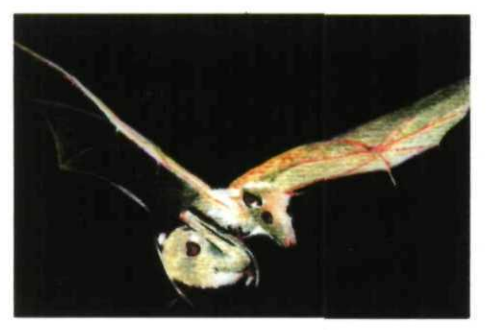
رجب ١٤٠٧هـ/ مارس ١٩٨٧م
العدد السابع/ المجلد الخامس والثلاثون

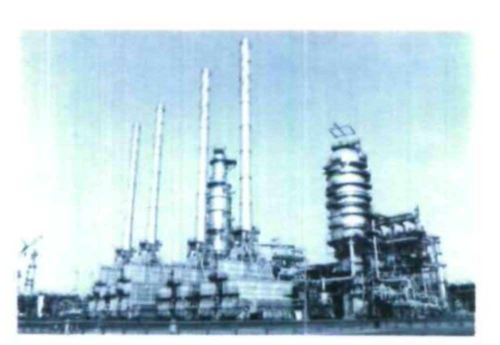
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

توزع مجاناً

المدير العام: فيصل محمد البسام
المدير المسؤول: اسماعيل ابراهيم نواب
رئيس التحرير: عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد: عوني أبوكشك


الأردن يحتضن مدن حلف الديكابوليس


الثعلب الطائر في ظلمات الليل


أخبار الزيت المصورة في أرامكو

صورة الغلاف: جانب من المعمل رقم ١٥ الجديد من معمل التكرير برأس تنورة.

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير.
- كل ما ينشر في "القافلة" يعبر عن آراء الكتاب أنفسهم ولا يعبر بالضرورة عن رأي القافلة أو عن اتجاهها.
- يجوز اعادة نشر المواضيع التي تظهر في القافلة دون إذن مسبق على أن تذكر كمصدر.
- لاتقبل القافلة إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها.

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية

طباعة شركة مطابع المطوع الدمام - المملكة العربية السعودية
Printed by Al Mutawa Press Co., Dammam, Saudi Arabia

ذو القرنين .. وبناء سد يأجوج ومأجوج

بقلم: د. أحمد جمال العمري / جدة

لم يعرف العرب من أخبار «ذي القرنين» شيئا، الا بعد أن أوحى الله سبحانه الى نبيه الأمي بقصته وأخباره، في معرض رد القرآن على أسئلة أهل الكتاب، حول أهل الكهف، والخضر صاحب موسى، وذي القرنين، وهذه الأمور الثلاثة، هي التي جعلها اليهود الفيصل في الحكم على صدق محمد، وكونه نبيا مرسلا من رب العالمين ام لا.؟

فرد القرآن الكريم.. **﴿قل سأتلو عليكم منه ذكرا﴾** وعبرا وموعظة **﴿إنا مكنا له في الأرض﴾** وجعلنا له قدرة ومكنة على التصرف فيها، وآتيناه من أسباب كل شيء أراده في ملكه سببا وطريقا موصلا اليه، **﴿فأتبع سببا﴾** أي متسبب به، وهو العلم الذي يوصله اليه حتى بلغ منزلا وطريقا ما بين الشرق والغرب. وهنا نقف قليلا لنتعرف اليه:

- من هو ذو القرنين؟.. وفي أي عصر كان؟
- وأين كانت مسيرته في سبيل الله؟.. وما أهدافها؟
- ومن هم قوم يأجوج ومأجوج؟ وما صفاتهم؟
- وكيف بنى ذو القرنين السد؟ وما هي الحكمة في بنائه؟..

من هو ذو القرنين؟.. ولماذا سمي بذلك؟

ذكر بعض المفسرين ان «ذا القرنين» كان ملكا شابا من الروم، وانه بنى الاسكندرية، وقالوا انه «الاسكندر الأكبر». واستدرك عليهم ابن كثير، فقال: إنما الذي كان من الروم: «الاسكندر الثاني»، وهو ابن «فيليس المقدوني» الذي تؤرخ به الروم.

اما «ذو القرنين»، المذكور في القرآن، فقد ذكر الأزرقي وغيره، أنه كان في عصر موغل في القدم، قال: إنه كان قريبا من عصر ابراهيم الخليل، عليه السلام، وأنه طاف بالبيت مع ابراهيم أول ما بناه، وآمن به، واتبعه، وأنه قرب الى الله قربانا، واتخذ من الخضر عليه السلام وزيرا[1].

وأما تسميته بـ«ذي القرنين»، فترجع الى أسباب، ذكرها المؤرخون والمفسرون:

- قالوا: ان صفحتي رأسه كانتا من نحاس. ويبدو أن هذا لباس الحرب الذي هو أشبه بالخوذة وكان يرتديه دائما.
- وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين.
- وقال بعض أهل الكتاب: إنما سمي ذا القرنين لانه ملك الروم وفارس.
- وقال غيرهم: ..لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وسئل علي، رضي الله عنه، عن ذي القرنين فقال: كان عبدا ناصحا لله، فناصحه، دعا قومه الى الله فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه الى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين.

ويفهم من سيرته، كما جاءت في كتب التفسير والتاريخ، ان الله سبحانه وتعالى، قد مكن له في الأرض، وأعطاه ملكا عظيما، ممكنا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين، والجنود، وآلات الحرب، والحصارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم انه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ مجده وملكه قرني الشمس مشرقها ومغربها.

يقول الله تعالى: **﴿وآتيناه من كل شيء سببا﴾** (الكهف ٨٤). قال ابن عباس: علما، وقال قتادة: منازل الأرض وأعلامها، وقال عبدالرحمن بن زيد: تعليم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوما الا كلمهم بلسانهم.

وهكذا ذو القرنين.. كان ملكا مؤمنا، مكن الله له في الأرض، فعدل في حكمه وأصلح، يسر الله له الأسباب، أي الطرق والوسائل الى فتح الأقاليم والبلاد والاراضي، وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، فقد أوتي من كل شيء مما يحتاج اليه مثله سببا.

روى ان الذين ملكوا الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان: فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران: فنمرود وبختنصر[2].

سئل علي، كرم الله وجهه، عن ذي القرنين، كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله.. سخر له السحاب وقدر له الأسباب، وبسط له اليد».

وقد ذكر في أخبار بني اسرائيل، أنه عاش ألفا وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب[3].

يقول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه:

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغار الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثاط حرمد

مسيرته في سبيل الله:

استهدفت مسيرة ذي القرنين في سبيل الله، هدفين اثنين:

اولها: اعلاء كلمة الله، ونشر عقيدة التوحيد في كل مكان.

وثانيهما: حماية الاقليات المؤمنة من طغيان الأكثريات الكافرة.

أما عن الهدف الأول: فيقول القرآن: **﴿فأتبع سببا، حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما، قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا. قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا. وأما من آمن وعمل صالحا، فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسرا﴾** (الكهف ٨٥—٨٨).

«فأتبع سببا» أي سلك طريقه الذي يسره الله له، ما بين المشرق والمغرب، أو أتبع طرفي الأرض، منازلها ومعالمها وآثارها، فسلك طريقا حتى وصل الى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض، لأن الوصول الى مغرب الشمس من السماء أمر مستحيل، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة، والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

«وجدها» أي الشمس **«تغرب في عين حمئة»** أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى الى ساحله، يراها كأنها تغرب منه، وهي لا تفارق الفلك الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه.

قال الامام الرازي: ان ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب، ولم يبق شيء من العمارات، وجد الشمس وكأنها تغرب في عين وهدة مظلمة، وان لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر، اذ لم ير الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر.»[4].

وقال ابن عباس: «وجدها تغرب في عين حامية» أي حارة.

قال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان «حمئة وحامية» ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون «حارة» لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل، و«حمئة» أي في ماء وطين أسود.

وعن عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: نظر رسول الله، ﷺ، الى الشمس حين غابت فقال: **«في نار الله الحامية لولا ما يزعمها من أمر الله لاحرقت ما على الأرض»**.

«ووجد عندها قوما» قال ابن جرير: مدينة لها إثنا

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ٣/١٠٠، وانظر «البداية والنهاية» لابن كثير.

(٢) ابو حيان: «البحر المحيط» ٦/١٥٧.

(٣) «تفسير ابن كثير» ٣/١٠٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٢١/١٦٦.

عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب. قال هشام بن يوسف: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم.

«**قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا**»، أي قلنا له بطريق الالهام: إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى الى الهداية والايمان. معنى هذا ان الله تعالى مكنه منهم، وحكمه فيهم، وأظفره بهم، وخيره ان شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه. وقال المفسرون: كانوا كفرة فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل، أو يدعوهم الى الاسلام فيحسن اليهم.

«**قال: أما من ظلم**» أي استمر على كفره وشركه بربه، فسوف نعذبه، قال السدي: كان يحمي لهم بقر النحاس، ويضعهم فيها حتى يذوبوا، وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة فتدخل أفواههم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم. «**ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا**» أي شديدا بليغا وجيعا أليما في نار جهنم، وفي ذلك إثبات المعاد والجزاء.

«**أما من آمن**» أي تابعنا على ما ندعوه اليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وقدم الصالحات «**فله جزاء الحسنى**» أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل، «**وسنقول له من أمرنا يسرا**» أي معروفا، فنيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق، بل السهل الميسر. فاختار ذو القرنين دعوتهم بالحسنى، فمن آمن فله الجنة والمعاملة الطيبة، والمعونة والتيسير، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة.

وفي سبيل الدعوة الى الله، ونشر عقيدة التوحيد، اتجه ذو القرنين الى المشرق.

يقول القرآن الكريم: ﴿**ثم اتبع سببا، حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا**﴾ (الكهف ٨٩ — ٩١).

«**ثم اتبع سببا**» أي سلك طريقا بجنده، فسار من مغرب الشمس الى مطلعها ومشرقها، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم، ودعاهم الى الله عز وجل، فإن أطاعوه.. وإلا أذلهم وأرغم انافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الاقليم المتاخم لهم.

«**حتى اذا بلغ مطلع الشمس**» اي حتى اذا وصل الى أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي «**وجدها تطلع على قوم**» أي أمة «**لم نجعل لهم من دونها سترا**» أي وجد الشمس تشرق على أقوام ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس، فاذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض، واذا غربت خرجوا لمكاسبهم، أي ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس، كانوا حمراً قصارا مساكنهم الغيران، أكثرهم يعيشون على السمك، كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان، ويقال إنهم الزنج[٥].

(٥) «تفسير الطبري» ١٤/١٦، و«تفسير ابن كثير» ١٠٣/٣.

قال ابن جرير: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا اذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل. جاء جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها، قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس.. ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيف طلعت عليهم الشمس هنا فماتوا، قال: فذهبوا هاربين في الارض.

«**كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا**» أي كذلك فعل بأهل المشرق، من آمن تركه، ومن كفر قتله، كما فعل بأهل المغرب، وقد أحطنا علما بأحواله وأخباره، وعتاده وجنوده، فأمره من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير، فانه تعالى ﴿**لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء**﴾.

أما عن الهدف الثاني من مسيرته في سبيل الله.. وهو حماية الأقليات المؤمنة من طغيان الأكثريات الكافرة المفسدة المخربة.. فيقول القرآن الحكيم: ﴿**ثم اتبع سببا، حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا، قال ما مكني فيه ربي خير، فاعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما**﴾ (الكهف ٩٢ — ٩٥).

يقول تعالى مخبرا عن ذي القرنين «**ثم اتبع سببا**» أي ثم سلك طريقا ثالثا بين المشرق والمغرب، يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة. «**حتى اذا بلغ بين السدين**» أي حتى اذا وصل الى منطقة بين حاجزين عظيمين، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان.

قال الطبري: والسد: الحاجز بين الشيئين، وهما هنا جبلان سُد ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزا بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم[٦].

وقال ابن كثير: وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فسادا، ويهلكون الحرث والنسل.[٧].

من هم يأجوج ومأجوج:

جاء في مسند الامام أحمد: عن سمرة أن رسول الله، ﷺ، قال: «**ولد نوح ثلاثة، سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث ابو الترك**. قال بعض العلماء هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، قال: انما سمي هؤلاء تركا لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة.

وقال السيوطي في «الدر المنثور»: بإسناد الى حذيفة قال: سألت رسول الله، ﷺ، عن يأجوج ومأجوج، فقال: **يأجوج ومأجوج أمة، كل أمة**

(٦) «تفسير الطبري» ١٥/١٦.
(٧) «تفسير ابن كثير» ١٠٣/٣.

أربعمائة ألف أمة، لا يموت أحدهم حتى ينظر الى ألف رجل من صلبه، كل حمل السلاح، قلت: يا رسول الله: صفهم لنا، قال: **هم ثلاثة أصناف: صنف منهم: أمثال الأرز**، قلت: وما الأرز؟ قال **شجر بالشام، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء**. قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: **هؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش احدى أذنيه، ويلتحف بالأخرى، ولا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير الا أكلوه. ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام، وساقتهم يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبرية**...[٨].

وقال المفسرون استنادا الى ما في الصحيحين: إن يأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام، وان الله تعالى يقول: يا آدم.. فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار، وواحد الى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: ان فيكم أمتين ما كانتا شيء الا كثرتاه: يأجوج ومأجوج.

كيف بنى ذو القرنين السد؟

لما بدا لذي القرنين ان يتجه الى الشمال، واتخذ لذلك طريقاً حتى وصل الى بلاد ما بين جبلين يقال انها بين أرمينيا وأذربيجان، ويسكن تلك البلاد أقوام لا تكاد تعرف لغتهم الا بصعوبة، وقد جاوروا يأجوج ومأجوج — قبائل من سكان سهول سيبيريا الشمالية، وهم قوم مفسدون في الأرض على جانب كبير من الفوضى والبدائية.

فلما رأى أصحاب السد ذا القرنين، وما هو عليه من جاه وسلطان، وما معه من جند وعتاد، توسلوا اليه، وقالوا له: يا ذا القرنين.. ان يأجوج ومأجوج قوم مفسدون في الأرض، ويسعون فيها بالفساد، قوم كالوحوش أو أشد!.. **فهل نجعل لك** «جعلا» أي نفرض لك جزءا من أموالنا كضريبة وخراج «**على أن تجعل بيننا وبينهم سدا**» يحمينا من شر يأجوج ومأجوج؟.. وهذا استدعاء منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب[٩].

ولما كان ذو القرنين رجلا مطبوعا على حب الخير، مفطورا على الصالح من الأعمال، قد مكنه الله في الأرض، وأعطاه الكثير من المال والثروة، فقد أجابهم الى طلبهم، ورد عطاءهم قائلا: «**ما مكني فيه ربي خير**» أي لا حاجة لي الى المال، فأعينوني بالأيدي والرجال «**أجعل بينكم وبينهم ردما**» — أي أجعل بينكم وبينهم سدا منيعا، وحاجزا حصينا، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوع ببناء السد، واكتفى بعون الرجال. قال: «**آتوني زبر الحديد**» أي أعطوني قطع الحديد.

(٨) «الدر المنثور» ج ٥ ص/٢٥٠، ٢٥١.
(٩) «البحر» ١٦٤/٦

واجعلوها لي في ذلك المكان. فحشدوا له الحديد والنحاس والوقود، حتى وضعوه مكان السد «**حتى اذا ساوى بين الصدفين**» — أي حتى اذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين الى القمتين «**قال انفخوا**» أي انفخوا بالمنافيخ عليه «**حتى اذا جعله نارا**» أي جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الاحماء. «**قال آتوني أفرغ عليه قطرا**» أي اعطوني أصب عليه النحاس المذاب.

قال الرازي: لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين الى أعلاهما، ثم وضع المنافخ عليها حتى اذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمي، فالتصق بعضه ببعض، وصار جبلا صلدا. فما استطاع يأجوج ومأجوج وقبيلها أن يعلوه ويظهروا عليه لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا له نقبا لقوته وسمكه، وأراح الله منهم شعوبا كانت تتألم منهم كثيرا.

ما شكل السد؟

قال ابن جرير — باسناد الى قتادة قال: ذكر لنا أن رجلا قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: انعته لي. قال: كالبرد المحبر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء. قال: قد رأيته.

وتقول المصادر القديمة: ان الخليفة الواثق قد بعث في دولته بعض امرائه، وجهز معه جيشا سرية، لينظروا الى السد ويعاينوه، وينعتوه له اذا رجعوا، فتوصلوا من بلاد الى بلاد، ومن مُلك الى مُلك، حتى وصلوا اليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه بابا عظيما، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرسا من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاهق لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا الى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالا وعجائب.

يقول الله سبحانه عن هذا السد: ﴿**فما اسطاعوا أن يظهروه**﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته «**وما استطاعوا له نقبا**» أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته.

وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج، لذلك ما أن رآه حتى هتف قائلا: «**هذا رحمة من ربي**» أي نعمة من الله ورحمة على عباده.

قال رسول الله، ﷺ، فيما رواه الامام أحمد باسناد الى أبي هريرة:

«**ان يأجوج ومأجوج ليحفرنّ السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه كأشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم واراد الله عز وجل ان يبعثهم الى الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله ويستثنى فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفا في اقفائهم فيقتلهم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده ان دواب الأرض لتسمن شكرا من لحومهم ودمائهم.**» (١٠).

ومهما يكن من سند مثل هذا الحديث، فان كثيرا من العلماء يعتبرونه من الاسرائيليات (١١) المروية عن كعب الاحبار وغيره، ويرون أن رفعها الى النبي، ﷺ، غلط وخطأ من بعض الرواة، أو كيد يكيد به الزنادقة اليهود للاسلام، واظهار رسوله بمظهر من يروي ما يخالف القرآن.

فالقرآن قد نص بما لا يحتمل الشك، على أنهم لم يستطيعوا أن يعلو السد، ولا أن ينقبوه، قال تعالى: ﴿**فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا**﴾ (الكهف ٩٧).

وخير من تناول هذا الحديث بالتحليل والتوضيح الامام الحافظ ابن كثير، قال بعد أن ذكر من رواه: حديث «غريب لا يعرف الا من هذا الوجه، واسناده جيد قوي، ولكن «متنه» في رفعه الى النبي نكاره، لأن ظاهر الآية: يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه، ولا من نقبه، لاحكام بنائه وصلابته وشدته، ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار، «أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه، حتى لا يبقى منه الا القليل، فيقولون غدا نفتحه، فيأتونه من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه الا القليل، فيقولون كذلك، فيصبحون وهو كما كان فيلحسونه، ويقولون غدا نفتحه، ويلهمون أن يقولوا: ان شاء الله فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه، وهذا فتحه»... ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب، فانه كثيرا ما كان يجالسه ويحدثه فحدث به ابو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، والله أعلم» (١٢).

والدليل على ضعف هذا الحديث، وأنه من وضع أهل الكتاب، أن النبي، ﷺ، جعل من انكسار سد يأجوج ومأجوج من علامات الساعة، وقيام القيامة.

عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: إطّلع النبي، ﷺ، علينا ونحن نتذاكر. فقال «**ما تذاكرون؟**» قالوا: نذكر الساعة. قال «**انها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات**». (فذكر الدخان. والدجال. والدابة. وطلوع الشمس من مغربها. ونزول عيسى ابن مريم. صلى الله عليه وسلم. ويأجوج ومأجوج. وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق. وخسف بالمغرب. وخسف بجزيرة العرب. وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم.) (١٣)

(١٠) مسند الامام أحمد حـ٢/٥١٠

(١١) الشيخ محمد ابو شهبة: «الاسرائيليات والموضوعات» ص/٣٤٦.

(١٢) «تفسير ابن كثير» ١٠٤/٣.

(١٣) صحيح مسلم ٢٢٢٥/٤

عندئذ تخرج تلك الأمة المفسدة المدمرة لتعيث في الأرض فسادا وتروع الناس أيما ترويع، وفي ذلك يقول الحق سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿**حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق، فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا..**﴾ (سورة الأنبياء ٩٦، ٩٧).

قال السدي: وهذا كله قبل يوم القيامة، وبعد الدجال.. لذلك قال الله هنا ﴿**فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا**﴾ (الكهف ٩٨، ٩٩). أي اذا اقترب الوعد الحق جعل الله السَّد (**دكّاء**) اي ساواه للأرض، وجعله طريقا كما كان. (**وتركنا بعضهم**) أي الناس يومئذ — يوم يدك هذا السَّد — يموج في بعض. ثم نفخ في الصور على أثر ذلك (**فجمعناهم جمعا**) يوم القيامة.

قال المفسرون: بل المراد أنه اذا ماج الجن والانس يوم القيامة، يختلط الانس بالجن. وقيل: اذا ماج الانس والجن، قال ابليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر، فيظعن الى المشرق فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض، ثم يظعن الى المغرب، فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض، فيقول: ما من محيص، ثم يظعن يمينا وشمالا الى أقصى الأرض، فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض، فيقول: ما من محيص، فبينما هو كذلك اذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته فبينما هم عليه اذ هجموا على النار فأخرج الله خازنا من خزان النار، فقال يا ابليس: ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟ ألم تكن في الجنان؟ فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله فرض علي فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه، فيقول: ان الله قد فرض عليك فريضة، فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار، فيتلكأ عليه، فيقول به وبذريته بجناحيه، فيقذفهم في النار، فتزفر النار زفرة، لا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل الا جثى لركبتيه (١٤).

بقي أن نقول أن ذا القرنين ليس هو الاسكندر الأكبر، لأن ما ذكره المؤرخون في تاريخه لا يتفق وما حكاه القرآن الكريم عنه، والذي نقطع به.. إنه كان رجلا مؤمنا صالحا، ملكه الله شرق الأرض وغربها، وكان من أمره ما قصه الله تعالى في كتابه، وهذا ما ينبغي أن نؤمن به ونصدقه □

(١٤) رواه ابن ابي حاتم — انظر «تفسير ابن كثير» ١٠٤/٣.

تصحيح

وقع خطأ مطبعي سهوا في مقال «رسول الله.. ورسالته في القرآن» في عدد جمادى الأولى ١٤٠٧هـ وذلك في صفحة ٣ في الآية الكريمة «**فيها كتب قيمة**» حيث وردت «فيها كتاب قيمة» والصواب كما أشرنا. كذلك الآية الكريمة «**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك ان اتبع الا ما يوحى اليّ**» اذ سقطت «الا» من آخر الآية. والصواب كما أشرنا أعلاه.

الدراسات الاستشراقية.. والأدب العربي

بقلم: د. محمد أحمد العزب / القاهرة

«... ووضح اليوم مكان المستشرقين في الدراسات العربية وسائر الدراسات الشرقية، فاذا صرفنا النظر عن عمل الكثيرين منهم في دراسة اللغة لأغراض دينية أو سياسية، فهم قبل كل شيء مؤرخون أو أصحاب إحصاء وتسجيل، لم يعهد فيهم أنهم حجة في آداب بلادهم.. فهم أحرى ألا يكونوا عندنا حجة في آدابنا العربية، وبخاصة في مسائل الذوق الفني، واختيار الشعر، والحكم على الشعراء.**

وهم بعد ذلك يجهلون روح اللغة، ويجهلون معاني الكلمات، وليس من الشائع بينهم أن يتوسعوا في دراسة التاريخ العام للبلاد الشرقية الى جانب دراسة اللغة، فيكثر عندهم من أجل ذلك أن يخطئوا فهم أطوار اللغة، جهلا منهم بأطوار التاريخ، وبما يستلزمه من موضوعات الشعر والخطابة وغيرها من التعبيرات القومية».

تذكرت هذه السطور اللامعة التي كتبها العقاد في كتابه الممتع: «اللغة الشاعرة» وأنا أقرأ كتاب المستشرق الفرنسي «ريجيس بالاشير»: «تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي».. لأن بعضا من الأحكام النقدية التي تضمنها هذا الكتاب، يمكن — بكل المقاييس — أن تعد أخطاء جسيمة، جر اليها ربما تعميم الأحكام، أو ربما تلقى هذه الأحكام عن الأغيار بشكل شمولي، دون أية استقصاءات نقدية تضع إبداع الشاعر أولا وأخيرا محورا لاهتمامات الدراسة الأدبية، ومعروف أنه بدون تأمل هذا الابداع المحور والأساس، تبقى كل الدراسات سماعا يحتمل الصدق والكذب، وشهادة تحتمل الانصاف والوشاية بلا تفريق.

فحين يؤكد «بلاشير» في مقدمة كتابه، «تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي» أن الباحث في الأدب العربي يجد نفسه مضطرا لتأييد نظرية تأثير الوسط على الأشكال الأدبية، وبالتالي عدم استطاعته تجاوز الوقائع أو الحط من أثر العباقرة والنوابغ في عالم الأدب، فذلك — هنا — كما يرى «بلاشير» لأن «الفعالية الأدبية في أدوار عدة، بل في الأدوار الهامة، تظل جماعية، مجردة من كل خلق فردي أصيل، واذا ما اتفق أن وجدنا خلاف ذلك، فاننا لا نلبث إذا أمعنا النظر، أن ندرك أن الظاهرة حركة تجديد أوجدتها فئة أو جماعة أدبية، أو هي صفة

خاصة إقليمية».. وتأسيسا على ذلك يقرر «بلاشير» أننا بلا شك — كما يقول — «نلحظ في الأدب العربي، في زمن معين، جهودا بذلت للخروج من نطاق اللاشخصية والارتفاع الى مستوى انتاج شخصي هو انعكاس لخلق المؤلف ومزاجه، غير أن تحقيق مثل هذه الأمور يظل في حكم النادر، وينطبق على شخصيات فذة أمثال: المعري والغزالي وابن خلدون، أو من هم دون هؤلاء أمثال أبي نواس والجاحظ والمتنبي، وكم من المفتنين الذين عجزوا — على ما بذلوا من جهود — عن الخروج على القواعد الموضوعة والأذواق المؤقتة السائدة». ثم يعمم «بلاشير» الحكم فيقول: «وعلى الجملة فالأدب العربي — وقد نلحق به آداب الشرق الأدنى — لم يعرف الا في ومضات خاطفة تلك الحاجة المرهفة الخصبة للتجديد والتمييز والمقارنة، وكل محاولة ملحة لكشف حالة أدبية متميزة عند أمثال أبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي، تؤدي بنا الى تأويلات خاطئة».. ويذهب الى ترتيب هذه النتيجة على كل هذه المقدمات.

«ويظهر أن الوضع الملائم هو إظهار الوشائج الكائنة بين أصحاب الآثار الأدبية والشعراء، وبين الوسط الذي عاشوا فيه، ثم في اظهار الملامح التي تشكل النواحي المشابهة لتؤلف فيما بعد مجموعات أو «زمرا عقلية».. إن مثل هذه الطريقة تقودنا الى نتائج مخيبة، ولكنها الوحيدة التي تبعدنا عن الأهواء، وتحول دون إطلاق صفتي الجدة والطرافة على آثار لا تملكها، والتي تنحصر فائدتها في تجردها من هاتين الصفتين، وعندها تتبدل مرامي تلك الآثار، على اعتبار أنها ليست شواهد فردية، بل تعبيرات منبعثة عن طبقة اجتماعية، أو طائفة تعكس في آن حياتها ومثلها العليا» — (المقدمة — ص ١٤ — ١٥).

فهل صحيح كل هذا الذي زعمه «بلاشير»؟

هل يمكن الموافقة على أن الإبداع «العربي» «كله» ليست فيه خصوصية تنبيء عن فنانه المبدع، وإنما هو مجرد صورة جماعية مكرورة، وفنانوه (زمر) تردد ما قيل بلا أية قدرة على امكانية التجديد والابتكار، وتختفي فيه ملامح «الشخصية» ليذوب في محيط «اللاشخصية» العام، وينوّع على أساس «القواعد الموضوعة» و«الأذواق المؤقتة السائدة»!؟؟

وهل حقيقي أن الأدب العربي لم يعرف الا «ومضات خاطفة» من التجديد والتمييز والمقارنة؟؟

وهل كان (الوسط) الذي عاش فيه الشعراء العرب بالفعل جبريا في توجيههم وجهة واحدة، وساحقا في هذا التوجيه الى هذا الحد الذي يجعل من جميعهم مجرد نسخ مكرورة أو حتى متشابهة؟؟

وهل ظل شعراء العربية يعبرون — كما يقول — ليس عن (عوالمهم الخاصة) وإنما عن (طبقة اجتماعية أو طائفة تعكس في آن حياتها ومثلها العليا)؟؟

لا نريد ان نستعرض الأدب العربي كله، ولا نستطيع أن نستعرضه كله، وإنما سنكتفي بتأمل بعض نماذج (الشعر الجاهلي) (والشعر الاسلامي)، وهما أقرب مراحل الإبداع العربي الى هذه الصيغة الظالمة التي وضع بها (بلاشير) طوق الاتهام حول عنق كل هذه الظاهرة الشعرية العربية منذ الجاهلية حتى بدايات العصر الحديث.

فهل كان عالم امرىء القيس هو نفس عوالم طرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، ولبيد بن ربيعة.. شعراء المعلقات؟

وهل كانت عوالم هؤلاء الشعراء هي نفس عوالم الشعراء الصعاليك.. والشعراء الفرسان.. والشعراء المتألهين؟

ثم هل كانت دواوين القبائل نسخا لدواوين القبائل الأخرى، بلا تمايز يعبر عن خصوصية الانسان، أو خصوصية الزمان، أو خصوصية المكان؟

نحن نعرف أن العالم الشعري لطرفة بن العبد يتميز بعشق المغامرة.. والاحساس بالعرضية.. ونسيان الواقع الظالم في أحضان المتعة والغياب:

اذا القوم قالوا مَنْ فتىً خلْتُ أنني
عُنيت فلم أكسلْ ولم أتبلّد

ولست بحلال التلاع مخافة
ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فإن تبغني في حلْقة القوم تلقني
وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ونعرف أن العالم الشعري لزهير بن أبي سلمى يتميز برحابة التجربة.. وحكمة الأشياء.. وأخلاقية الانتماء:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ومن لم يصانع في أمور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يَفِرْه ومن لا يتقي الشتم يشتم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه
الى مطمئن البر لا يتجمجم

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن يَرْق أسباب السماء بسلم

ومن يجعل المعروف في غير أهله
يكن حمده ذما عليه ويندم

ومن يعص أطراف الزِّجاج فإنه
يطيع العوالي ركّبت كل لهذم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلِم الناس يُظلم

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه
ومن لا يكرّم نفسه لم يكرم

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ونعرف أن العالم الشعري لعروة بن الورد يتميز بالتمرد على واقع التفاوت، والانحياز الى الجائعين والمتعبين.. والالحاح على عبور الذات الى الآخرين:

وإني امرؤ عافي إنائي شرْكة
وأنت امرؤ عافي إنائك واحد

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

فاذا انتقلنا من الجاهليين الى الاسلاميين.. وجدنا العالم الشعري لأبي نواس يتميز بعشق اللذة والذات.. والسخرية من كل المواضعات الاجتماعية والأخلاقية.. والصحو آناً بعد آن في بكائيات شفيفة ضارعة.

ووجدنا العالم الشعري للمتنبي يتميز بطغيان الاحساس بالقوة.. وفلسفة الأشياء والقيم والتمزق النبيل بين محدودية الطاقة ولا محدودية الطموح.

ووجدنا العالم الشعري للمعري يتميز بتأمل الحياة والكون والمصير.. وتعرية الباطن الانساني وعرضه في قسوة على ذاته.. والدعوة الى رفض الافتراس في تعاملنا مع الأحياء والأشياء.

فهل يمكن أن يقال — بعد كل ذلك — ان الابداع العربي ليست فيه أية خصوصية مميزة؟ وليس لمبدعيه أية قدرة على الابتكار والتجديد؟ ولم يستطع أن يجسد ملامح (الشخصية) لفنانه؟ وأنه ظل طوال تاريخه أسيرا للأنماط السائدة، والقواعد الموضوعة، والوسط الجبري؟ والطبقة الأم؟

لقد أنصف النقد العربي القديم جهد الابداع الشعري لشعراء الجاهلية والاسلام، وحدد لكل عبقرية شعرية مجالها وخصوصيتها، فقال ابن سلام مثلا: «سألت يونس النحوي عن أشعر الناس، فقال: لا أومىء الى رجل بعينه، ولكني أقول: امرؤ القيس اذا غضب، والنابغة اذا رهب، وزهير اذا رغب».. ويبدو ذلك تحديدا علميا لخصوصية كل واحد من هؤلاء، وتركيزا على المنحى الذي يشكل

جوهر عالمه الذاتي... وأمثال هذا التحديد كثير في تراثنا النقدي القديم.

ولكننا ندرك أن أمثال «بلاشير» قد لا يسلمون بالأحكام النقدية التي تنسب الى علماء التراث العربي، على الرغم من علميتها وموضوعيتها معا. ومن هنا يجوز أن نجيبهم بأحكام نقدية أطلقها مستشرقون معاصرون، أكدوا من خلالها خصوصية كل شاعر من شعراء العرب الكبار، على نحو يقطع بأن غياب (العالم الخاص) لكل شاعر منهم، فرضية لا تسكن غير عقول المتسرعين الذين لم يستطيعوا قراءة الموروث الشعري العربي قراءة فاهمة...

يقول بروكلمان عن خصوصية عالم عنترة الشعري: «وفن عنترة الشعري، الذي نعرفه من معلقته بصورة أساسية، هو في حقيقته فن بدوي نموذجي» (تاريخ الأدب العربي — جـ١ — ص ٩١).

ويقول عن خصوصية عالم طرفة الشعري: «وفضل النقاد العرب طرفة على سائر الشعراء باجادته وصف الناقة في معلقته على نحو لم يسبق اليه، ويميل بعضهم الى عده أشعر شعراء الجاهلية» (تاريخ الأدب العربي — جـ١ — ص ٩٢).

ويقول عن خصوصية عالم زهير الشعري: «ويروى أن لزهير سبع قصائد نظم كلا منها في عام كامل، ومن ثم سميت الحوليات. وقد برز عنصر التهذيب والتعليم بقوة في شعر زهير، ولا سيما في معاني العتاب والزهد، حتى ظن بعض العلماء أنه خاضع لتأثير النصرانية، نعم كان تأثير النصرانية واسع الانتشار قديما في جزيرة العرب، بيد أنه لا يجوز من أجل ذلك عده نصرانيا» (تاريخ الأدب العربي — جـ١ — ص ٩٥).

ويقول عن خصوصية عالم امرىء القيس الشعري: «ويرى النقاد العرب أن امرأ القيس أول من استعمل النسيب وغيره من معاني الشعر في أسلوب القصائد، ومن الخصائص العروضية في شعره كثرة استعمال الضرب المقبوض في الطويل، وكثرة الإقواء في القافية، وكثرة التصريع في غير أول القصيدة». (تاريخ الأدب العربي — جـ١ — ص ٩٩).

ويقول عن عالم الشنفرى الشعري: «... اما في لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعري مستقل، كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب في تقديمه للامية، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلي وصف الطبيعة من الجبال والفيافي وغيرها، غرضا مقصودا لذاته، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر اساسي بهيج لتصوير الانسان، نفسه وأعماله. واذاً فليس هناك ما يحملنا على موافقة قدامى اللغويين الذين اقتفى أثرهم كرنكو في دائرة المعارف الاسلامية، والذين افترضوا لهذه القصيدة اللامعة بين قصائد الشعر الجاهلي شاعرا آخر غير الشنفرى الذي رويت له القصيدة». (تاريخ الأدب العربي — جـ١ — ص ١٠٦ — ١٠٧).

ويلفتنا هذا النص الأخير الى حقيقة نقدية ساطعة، وهي أن موافقة بروكلمان للنقاد العرب في تحديد خصائص العوالم الشعرية لكل من عنترة، وطرفة، وزهير، وامريء القيس، ليست مجرد موافقة ناقلة، وإنما هي موافقة معلقة، بدليل إنه حين لم يقتنع بما قاله النقاد القدماء الذين اقتفى أثرهم كرنكو، في انتماء لامية الشنفرى، اليه أو الى غيره، رفض وجادل وقرر.. وهذا يطمئننا الى مدى بعيد بأن بروكلمان كان شريكا فكريا للنقاد العرب في تأكيدهم على خصوصية كثير من شعراء الجاهلية، واستقلال كل منهم بعالم خاص.

فاذا زعم بعض المستشرقين بعد ذلك — أن مجرد اشتراك هؤلاء الشعراء في (الاتجاه العام) في عصرهم، يلغي خصوصيتهم الفنية، فهذا الزعم غير العلمي يسحب كل البسط من تحت أقدام كل المذاهب الأدبية في القديم والحديث على السواء.. اذ كيف اذن تكونت المذاهب الأدبية والفنية، في القديم والحديث، في الشرق والغرب، إن لم يكن من (هذا التوجه العام) الذي يعقد وشائج فنية بين (زمر) معينة؟ أو من مجموع إبداع عقليات أدبية وفنية استقطبت هما وجوديا وفنيا مشتركا، أسهم فيه كل عقل بمنظوره الخاص ورؤيته المتفردة؟! أو من التوفر على مضامين بذاتها شكلت توجه العصر الفني الى استقصاء هذه المضامين وصياغتها في شكل فني؟ أو من الالتقاء — حتى في الشكل — صورا، وأبنية، وتصاميم، ليؤكد ان حركة فنية ما لا بد أن تتبادل عملية التأثير والتأثر، وتشكل بقبضها على هذه الملامح الشكلية عصرا فنيا له طبيعته الخاصة، وحضوره الخاص؟

على أنه من المعروف أن شعر المقطوعة مرحلة سابقة على شعر القصيدة، وغالبا ما كان الشاعر يعبر من خلال المقطوعة عن ذاته وهمومه الخاصة، أي عن وجدانه الفردي، فلما طغى الاحساس بالجماعة، انعكس ذلك على الشعر، ولم يكن طغيان هذا الاحساس الجمعي سوى نتيجة لما احاطت به الجماعة شاعرها من تكريم وحفاوة تاريخية، ولما أحاطت به شعره من تقدير يوشك أن يكون طقوسيا، ولما أحسه الشاعر — وسط ذلك — من دور قيادي جعل من انتمائه ضرورة حياتية وفنية لازبة، فغنىّ هموم الجماعة في شعره، وكانت تلك مرحلة من مراحل تاريخية الشعر العربي.

ومع ذلك فقد ظل للشاعر صوته الخاص، وعالمه الخاص، الذي ان عجز — لهذا السبب التاريخي السالف — عن تضمينه في قصيدته بكاملها، فانه استبقى هذا العالم وهذا الصوت الخاص في مقدمات قصائده من جهة، وفي المنظور الفلسفي والموقف الفني الذي يعكس من خلاله تجاربه الشعرية من جهة أخرى... مع ملاحظة أن الشعر اذا صار وجدانا جماعيا فتلك مرحلة تقدم وليس دليل اتهام.

إن اشتراك مجموعة من العبقريات الفنية في عصر واحد، يعني — على الفور — توجهها العام الى هموم بذاتها. ومع ذلك فهو لا يلغي خصوصيتها في الرؤية والاحساس والتشكيل. كما يعني أن الحركة الابداعية لهذه العبقريات تمتلك نوعا من الوعي الجماعي الذي يقود الابداع في اتجاهه، حتى يكون قادرا على التعبير عن مخاض عصره بلا غياب في أنانيات تعبيرية مسطحة.

وقد يخيل الينا أن الذي جر الى هذا الموقف التعميمي .لدى بعض هؤلاء المستشرقين أنهم وجدوا (موضوعات) بذاتها تتكرر في الشعر العربي، والجاهلي منه على وجه التحديد، فشبه لهم أن تكرار هذه الموضوعات تكرار للمنظور الفني الذي واجهها به هؤلاء الشعراء، ومن ثم شبه لهم ان البناء الفني للشعر الجاهلي مجرد تنويع على اساس واحد بلا تعديد.

مع أنه معروف — من الوجهة النقدية — أن (الموضوع) لا يحدد قيمة الابداع، فقد يتناول الموضوع الواحد شعراء متعددون، ويبدع كل واحد منهم، من هذا الموضوع الواحد، تشكيلا جماليا مختلفا في تكويناته وايحاءاته بلا حد.

كما ان (الموضوع) في (الشعر بالذات) لا يشكل سوى مجرد مثير محرض على الابداع، مع التسليم بأن وحدته نابعة من تشابه الاطار المادي الذي يحيا فيه الشعراء ويعبرون عنه، ومن ثم تصبح هذه الوحدة وحدة مراوغة، لانها تخدع المتلقي الساذج فتخيل اليه أنها هنا كما هي هناك، مع أن قليلا من الغوص والتعميق يقفنا على حقائق المسافة الفاصلة بين قصيدة الطبيعة مثلا عند شاعرين يمتلكان منظورين مختلفين.

فاذا وصف شعراء الجاهلية منادح الطبيعة، أو مفاوز الصحراء، أو هذا النوع من الأحياء التي تشاركهم حركة واقعهم اليومي، فليس معنى ذلك أن كلا منهم يكرر الآخرين هكذا بلا تمييز، فبعضهم —كما حدثنا بروكلمان — كالشنفرى، لا يكرر وصف الطبيعة ككائن حيادي، أو حتى ككائن مراوغ، وإنما يصفها كإطار عام يتحرك داخله الانسان فيترك عليه من طابعه، ويأخذ هو كذلك من طوابعه... وقل مثل ذلك في وصف الأطلال والناقة والرحلة.. إن كلا منها يبوح بمضمون انساني مختلف، في هذا العمل الشعري أو ذاك، لهذا الشاعر أو ذاك، مع تكررها بأعيانها الظاهرة في كل القصائد تقريبا.

وهكذا يتحدد الحجم الحقيقي لمثل هذه الدراسات الاستشراقية، كما يتحدد حجم الدور المنوط بنا في قراءة هذه الدراسات، وتقويمها، والتنبيه على بعض ما فيها من مغالطات فكرية، قد تكون نتيجة القصد، أو نتيجة القصور، أو نتيجتهما معا، فشبابنا الطالع يظل أمانة في أعناقنا، حتى يقوى عقله على التفكير المستقل، وجناحاه على التحليق البعيد □



مرحباً بالخريف

شعر: خليل خلايلي / الباحة

ما الذي يبتغيه مني الخريف — جسدي ناحل وقلبي ضعيف
لم يعد للغريم الا بقايا — صوَّح الزهر اذ تعرَّى الوريف
وتهاوى الشباب واضيعة العمـ — ـر وولى رواؤه الغطريف
كل حسن ذوى، ولم يبق شيء — من عهود الصبا لديَّ لطيف
ماتت النظرة الأدبية والحز — م وولى دهائي المعروف
وضياء العيون صار حسيرا — اذ توارى به ظلام سديف
وردائي الذي جعلت حواشيـ — ـه زمانا على النجوم تطوف
مزقته الأيام تمزيقة الشر — وعاثت بلحمتيه الظروف

* * *

أين نفسي التي لم تعرف العا — ر وكانت للذل دوما تعيف
أين ذاك الإباء يخطر مزهوّاً — ويسمو إذ تشرئب الصروف
أين لقيا الحبيب في هدأة الليل — ودربي معسس ومخوف
وبجنبيَّ خافق يتلظّى — وحسام اذا امتشقت رهيف
ذاك عهد مضى ونحن بقينا — نجمة غوّرت وأفق كسيف
فالمحبّون دربهم غير دربي — حوّل الليل وجهتي والخسوف

* * *

مرحبا يا خريف اذ جئت تلقا — ني فجسمي كما رأيت نحيف
فتفضل بالرفق واستلّ روحي — ان شوقي الى الرحيل عنيف
ما بقائي بعالم ليس فيه — أمل يرتجى وخدن أليف؟

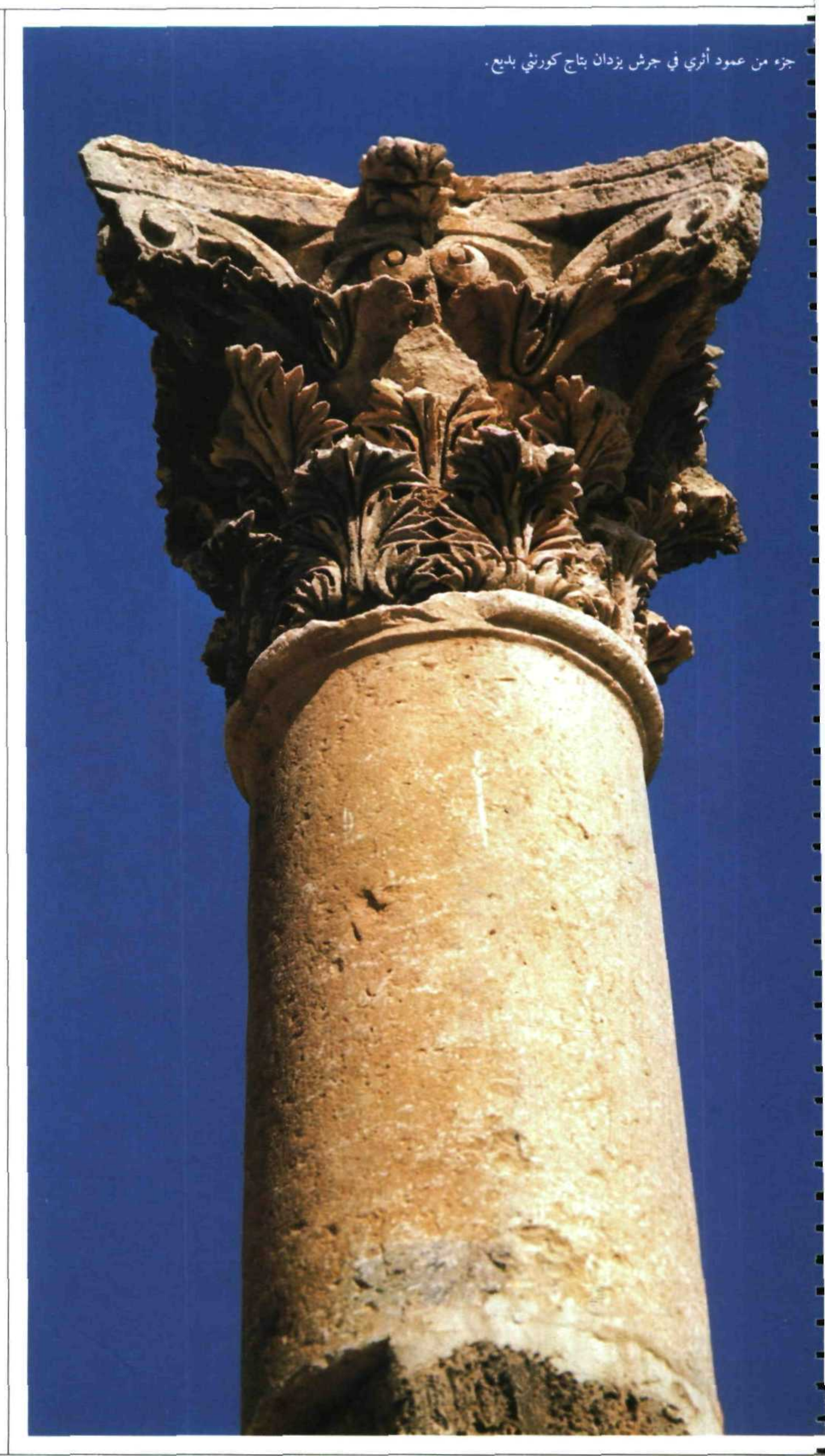


بقلم : سليمان نصر الله / هيئة التحرير

يرتاد الأردن سنويًا آلاف السيّاح لمشاهدة معالمه التّاريخيّة، المتمثلة في عدد من المُدن والمواقع الأثريّة العريقة، التي ازدهرت في حقب تاريخيّة متلاحقة منها على سبيل المثال "حلف الديكابوليس"، أي حلف المدن العشر، التي لاتزال اطلالها قائمة منذ العصر الروماني، وخاصة مدينة جرش، جوهرة مدن حلف الدّيكابوليس.

يجتذب الأردن عددا كبيرا من السياح، يفدون اليه من مختلف أرجاء العالم، بوصفه البوتقة التي انصهرت فيها حضارات عريقة، تعاقبت على أرضه، فخلّفت معالم أثرية بارزة، لا تزال موضع اهتمام العديد من علماء الآثار، والباحثين، والمؤرخين، والمراكز العلمية. وانطلاقا من أهمية الآثار وتنشيطا للحركة السياحية في البلاد، راحت حكومة الأردن، عبر الأجهزة المعنية بالسياحة والآثار، تبذل جهودا كبيرة لابراز معالم المدن والمواقع الأثرية والمحافظة عليها، من خلال تنظيم رحلات سياحية الى البتراء، وجرش، والعقبة، وغيرها من المدن الأثرية، واقامة مهرجان جرش الدولي السنوي للثقافة والفنون، حيث تشارك بلدان عربية وأجنبية بفرق فنية، تقدم عروضا فولكلورية الى جانب اقامة معارض للأزياء والحِرَف والمصنوعات اليدوية الوطنية.

والأردن يضم في ربوعه معظم مدن حلف «الديكابوليس — Decapolis» فمنذ أكثر من ألفي سنة ازدهرت بضع مدن جميلة في الجناح الجنوبي الشرقي من الامبراطورية الرومانية، عرفت باللغة الاغريقية بالديكابوليس، أي المدن العشر، التي أخذ الستار يزاح عنها في الآونة الأخيرة من جوف الأرض وغياهب التاريخ لتتألق من جديد. «كفيلادلفيا — Philadelphia»، أي مدينة عمان، العاصمة الاردنية المتميزة بعمرانها الحديث، ومدينة «جرش — Garasa»، التي تعتبر أكثر مدن حلف «الديكابوليس» حفاظا على معالمها الأثرية. وهناك «جادارا — Gadara» المعروفة اليوم باسم «أم قيس» على مقربة من مدينة اربد، وهي تطل على وادي الاردن ومرتفعات الجولان، وبحيرة طبريا. و«بيلا — Pella» التي تعرف اليوم باسم «طبقة فحل» الواقعة على السفوح الشمالية المطلة على نهر الأردن. وقد اجريت مؤخرا حفريات أثرية في أم قيس «جادارا» وطبقة فحل «بيلا» للوقوف على تاريخ هاتين المدينتين في حلف الديكابوليس، بيد أن جميع المعلومات التي توصل اليها علماء الآثار من الحفريات المذكورة، وكذا المعلومات التي تم استخلاصها من الخرائط القديمة، والمراجع الأدبية القديمة، والقطع النقدية والنقوش الابيجرافية، لم تشبع نهم علماء الآثار والمؤرخين، لأنها لم تساعدهم على تحديد طبيعة حلف «الديكابوليس» وماهيته، وتشكيله، ودوره السياسي في نطاق الامبراطورية الرومانية المترامية الاطراف آنذاك. ولذلك يبقى «الديكابوليس» لغزا محيرا، حتى أن كلمة «ديكابوليس» ذاتها محيرة مضللة بالنسبة للمؤرخين وعلماء الآثار والباحثين، فيما يتعلق بعدد المدن الداخلة في اطار هذا الحلف. ويتألف حلف الديكابوليس من دمشق وفيلادلفيا أي (عمان)، ورافانا — Raphana، وسيثوبوليس — Scythopolis أي بيسان في فلسطين، وجادارا — Gadara أي أم قيس، وهيبوس — Hippos أي قلعة الحصن في


جزء من عمود أثري في جرش يزدان بتاج كورنثي بديع.



ألواح ابيجرافية تحمل كتابات تعكس مكانة «جادارا» التاريخية.

مرتفعات الجولان، وديون — Dion ، وبيلا — Pella اي طبقة فحل، وجراسا — Garasa أي جرش، وكناثا — Kanatha أي قنوات في جنوب سوريا. هذا ولا يعرف موقع كل من مدينتي «ديون» و«رافانا» على وجه التحديد، فهما لا يزالان في دائرة التخمين.

لقد قام حلف الديكابوليس عقب حملة القائد الروماني الشهير «بومبيوس — Pompeus» على الشرق عام ٦٤ — ٦٣ ق.م. مباشرة لاغراض دفاعية، وخاصة الوقوف امام مملكة الانباط والقبائل العربية في شمال الجزيرة العربية. وارتبطت هذه المدن بطرق رئيسية، وراح نفوذ كل واحدة من هذه المدن يتأثر بنفوذ الأخرى، وكان كل منها يتمتع بقسط من الحرية الذاتية فيما يتعلق بادارة شؤونها الداخلية وسك النقود الخاصة بها. وحافظت هذه المدن على صلاتها الدائمة بموانىء البحر الأبيض المتوسط وخاصة الموانىء الاغريقية، وكانت خاضعة من الناحية الادارية لحكام مقاطعة سوريا، وتفرض عليها الضرائب لأغراض امبراطورية، وكانت بحق تمثل الحضارة الهلينية — الرومانية المشتركة. والجدير بالذكر أن بعض هذه المدن التي كانت تؤلف حلف الديكابوليس ذات جذور ضاربة في أعماق التاريخ، فبعضها كان مأهولا منذ العصور الحجرية القديمة أمثال دمشق وعمان وجرش وطبقة فحل، وازدهرت ايما ازدهار في العصر الأموي كمدن اسلامية متألقة. ان زيارتك لبعض مدن حلف الديكابوليس اليوم توقفك على فترة زاهية تمتد الى نحو ٥٠٠٠ سنة من تاريخ الانسانية في هذه المنطقة، للاطلاع على ما تضمه كل مدينة من معالم أثرية بارزة.

فيلادلفيا (عمّان)

الزائر للمملكة الأردنية يبدأ جولته السياحية عادة في العاصمة الاردنية الحديثة عمان، والتي أطلق عليها اليونان فيما مضى اسم «فيلادلفيا». لقد راحت عمان تنضو عنها ثياب الماضي لترتدي حلة جديدة، وأخذت في الآونة الأخيرة تتسع وتتسع عاما بعد عام في كل اتجاه، بفضل الحركة العمرانية النشطة فيها، التي تمتاز بهندستها الجميلة وتصميمها البديع، من فنادق، ومدارس، وكليات، وجامعات، ومستشفيات، ومساجد، ومساكن عصرية، ومراكز تجارية، ومطاعم، ومقاه، وأسواق مركزية عديدة، وغيرها من المرافق العامة.

ومدينة عمان من المدن العريقة، التي شهدت حضارات زاهية تعاقبت على أرضها. وتشير الحفريات الأثرية الى أنها كانت مأهولة منذ عهود سحيقة، فقد عثرت بعثة آثار امريكية في «عين غزال» شمال عمان على قرية من العصر الحجري يعود تاريخها الى نحو ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كما عثرت على قرية أخرى تعود الى العصر البرونزي منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وتدل الآثار المنتشرة حول القلعة في وسط عمان،على أنها تعود الى العصر الحديدي. وقد شيّدت الدول التي تعاقبت على الأردن في هذه البقعة القلاع والقصور والهياكل والحمامات الفخمة والمدرجات وغيرها. فالعمونيون الذين ظهروا حوالي ١٢٥٠ ق.م. اتخذوا من عمان عاصمة لهم واطلقوا عليها اسم «ربة عمّون». ثم جاء دور اليونان فخضعت عمان لحكمهم، وفي أثناء حكم «بطليموس الثاني — فيلادلفوس» (٢٨٥ — ٢٤٧ ق.م.) حملت عمان اسم «فيلادلفيا» وراحت تنعم بالحضارة اليونانية، ثم خضعت عمان نحو سنة ٩٠ ق.م. لحكم الانباط. وفي سنة ٦٣ قبل الميلاد اجتاحت الجيوش الرومانية بقيادة «بومبيوس» منطقة الشرق الأوسط، والحق «عمان» بمدينة «بصرى» وضمها الى مجموعة المدن العشر المعروفة باسم «الديكابوليس». وفي هذه الفترة من تاريخها، نعمت عمان بالاستقرار فأنشئت فيها الشوارع الفسيحة، والمدرج، والهيكل، والحمامات، والسوق، وميدان سباق الخيول، وارتفعت قلعتها بين أسوار حجرية، تضم برجا عند كل زاوية لحمايتها. وفي سنة ٦٣٦م استولى على عمان «يزيد بن أبي سفيان» وبنى فيها الامويون مساكن وقصورا لهم.

أما أبرز المعالم الأثرية فيها فتشمل المدرج الروماني الذي يتسع لنحو ستة آلاف متفرج، وقد افتتح فيه



روعة الفن المعماري تتجلى في هذا المدرج الروماني.

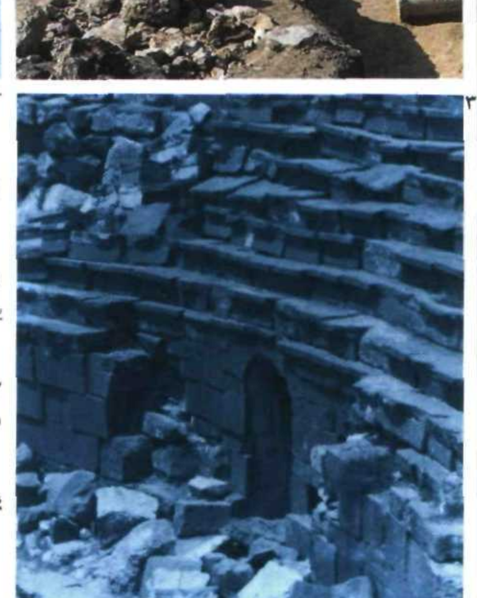
حديثا متحف للتراث الشعبي، والقلعة التي تطل على عمان من الشمال الشرقي وتضم معبد هرقل، والبرج، والقصر الأموي، بالاضافة الى متحف الآثار الأردني.

جرش (جراسا)

اطلق عليها الرومان اسم «جراسا — Garasa »، وهي تعتبر جوهرة مدن حلف الديكابوليس، لما تضمه من معالم أثرية بارزة. وفي جرش، يقام كل عام مهرجان جرش الدولي للثقافة والفنون، وهي تبعد عن عمان ٤٨ كيلومترا الى الشمال، ويربطها بالعاصمة الاردنية طريق معبد حديث، كثير التعاريج، يخترق التلال والجبال والأودية المكسوة بالبساتين والأشجار الحرجية. وتبدو جرش للزائر من بعيد كميناء صغير على بحر أخضر، حيث تكتنفها الجبال الخضر، وتنتشر حولها كروم العنب وأشجار التين والزيتون والرمان واللوز والمشمش، وبساتين الخضروات المتنوعة، وغابات الصنوبر الكثيفة. وتقوم جرش الحديثة والقديمة فوق حوض ترابي خصيب تحيط به الجبال، ويشطره وادي جرش الى شطرين. أما مبانيها الحديثة، فتنتشر على الضفة الشرقية من الوادي الذي اسماه الرومان اسم «السيل الذهبي — Chrysor Hoas» نظرا لخصوبته، بينما تقوم مبانيها القديمة على الضفة الغربية من الوادي. وفي هذا الموقع الطبيعي الجميل، أقيمت جرش في العصر الهليني، تشهد بذلك أقواسها، ومعابدها، ومسارحها، وساحاتها، وأعمدتها، وحماماتها، حيث تعتبر مثالا للمدينة الرومانية القديمة، نظرا لطريقة تصميمها، ومحافظتها على طابعها العام، ومعالمها الرئيسية، منذ انشائها في الفترة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الثالث الميلادي. وفي غضون القرنين الأول والثاني بعد الميلاد نمت ثروتها وازدهرت تجارتها، وتوثقت علاقاتها مع الدول المجاورة ولا سيما مع الانباط، ووصلت أوج ازدهارها في مستهل القرن الثالث الميلادي. وتدل الحفريات الاثرية التي أجريت فيها انها كانت مأهولة منذ العصر النيوليتي (٦٠٠٠ق.م.). وقد مرت جرش بعصر ذهبي جعلها بمثابة المركز الأمامي للحضارة الغربية عندما ألحقها القائد الروماني الشهير «بومبيوس» عام ٦٣ق.م. بالمقاطعة السورية، مع بقائها متمتعة بالحكم الذاتي. ثم ادخلت في حلف المدن العشر التي تمثل الحضارة الهلينية الرومانية المشتركة، فكانت جرش واسطة العقد بين هذه المدن.

ان أول ما يصافح نظر الزائر من هذه المعالم هو «قوس النصر» التي شيدت تكريما للزيارة التي قام بها الامبراطور الروماني «هدريانوس» في شتاء عام ١٢٩ — ١٣٠م، لتدشين الطريق الممتدة من «بصرى» مارة بجرش وعمّان الى البحر الأحمر. ونشاهد «الساحة العامة» وهي ساحة بيضاوية الشكل مبلطة ومحاطة بأعمدة أيونية الطراز، وشارع الأعمدة ذات التيجان الأيونية والكورنثية، وهيكل «زيوس»، والمدرج







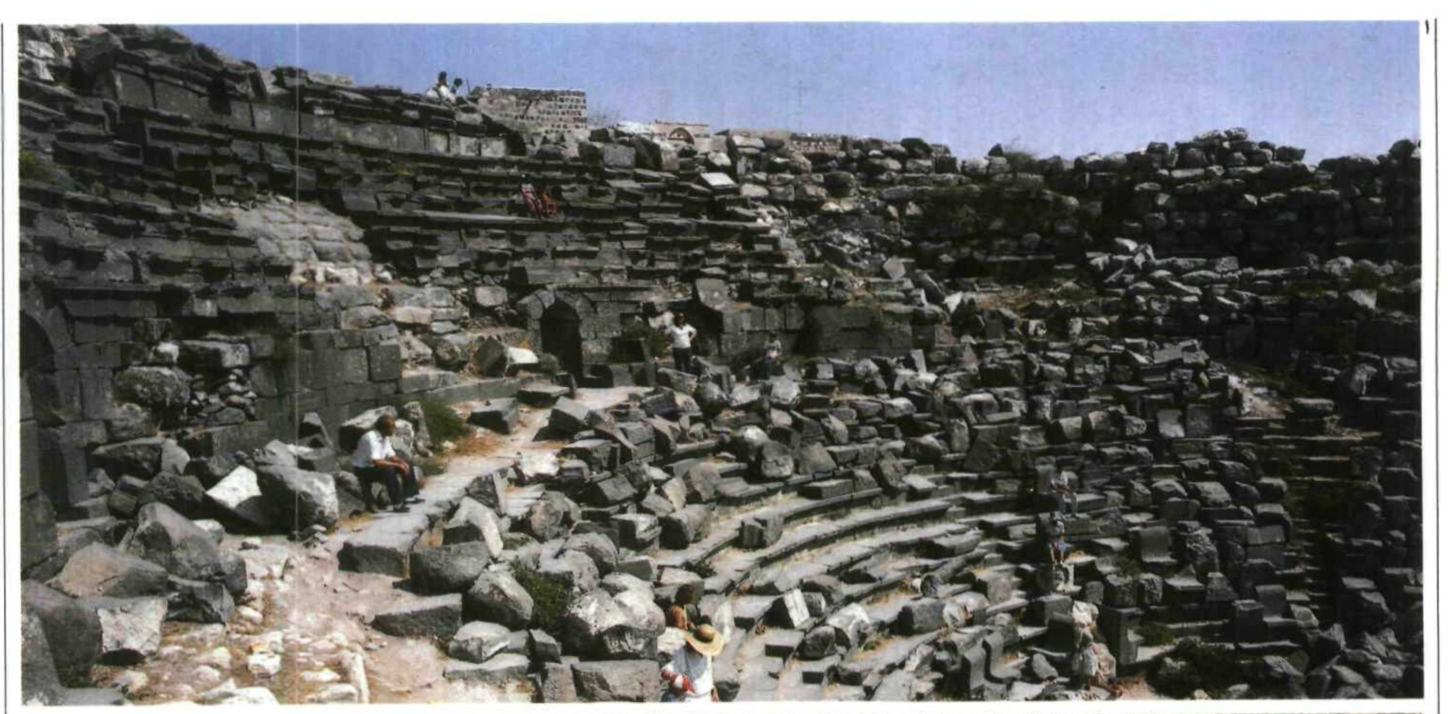
١ — الآثار البيزنطية في «بيلا» أي طبقة فحل.

٢ — تمثال من رخام أبيض يمثل الالهة «عشتاروت» التي يظهر رسمها على العملة التي تداولتها مدينة «جادارا».

٣ — باب يفضي الى المسرح الواقع في وسط المدرج الكبير في «جادارا»، مدينة الفلاسفة.

٤ — الساحة العامة في أم قيس.





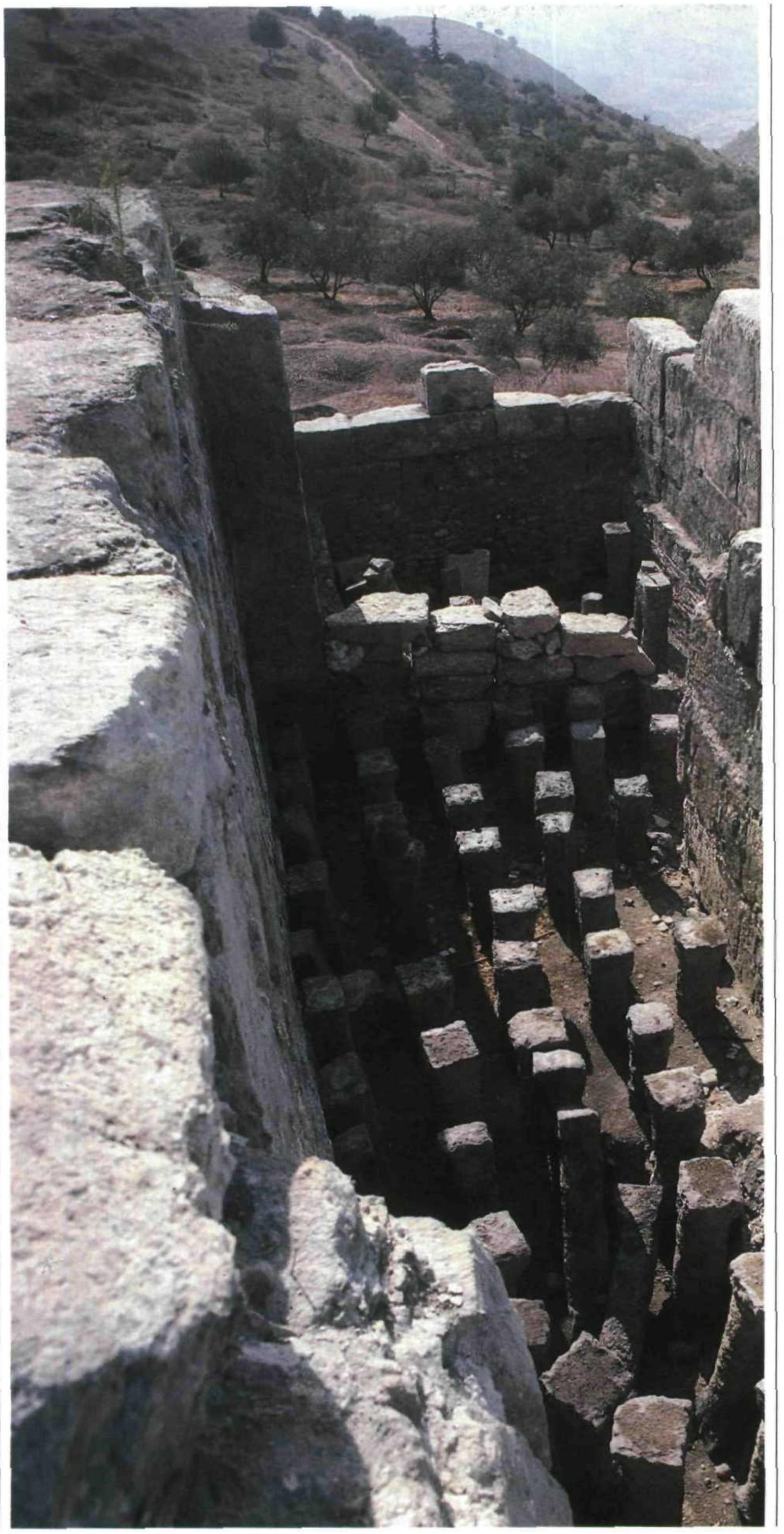


١ — المدرج الغربي في «جادارا» أي أم قيس.

٢ — أطلال المدينة الرومانية في «بيلا».

٣ — المدرج الشمالي في «جراسا» أي جرش، جوهرة حلف الديكابوليس في الأردن.





الروماني الكبير الذي يتسع لخمسة آلاف متفرج، وهيكل «ارتميس» القائم على ربوة مرتفعة ويمتاز بضخامته وفخامته، ومسبح العذارى وهو عبارة عن بركة ماء ذات نافورة تتدفق مياهها من أفواه تماثيل الأسود، والمدرج الشمالي، والمعابد، والحمامات، والبرك، والمدافن، والبوابات.

وبعد الفتح الاسلامي عام ٦٣٦م، واصلت جرش مسيرتها وازدهرت ازدهارا كبيرا، لوقوعها على الطرق التجارية التي تربطها مع المدن الرئيسية في الأردن وسوريا وفلسطين.

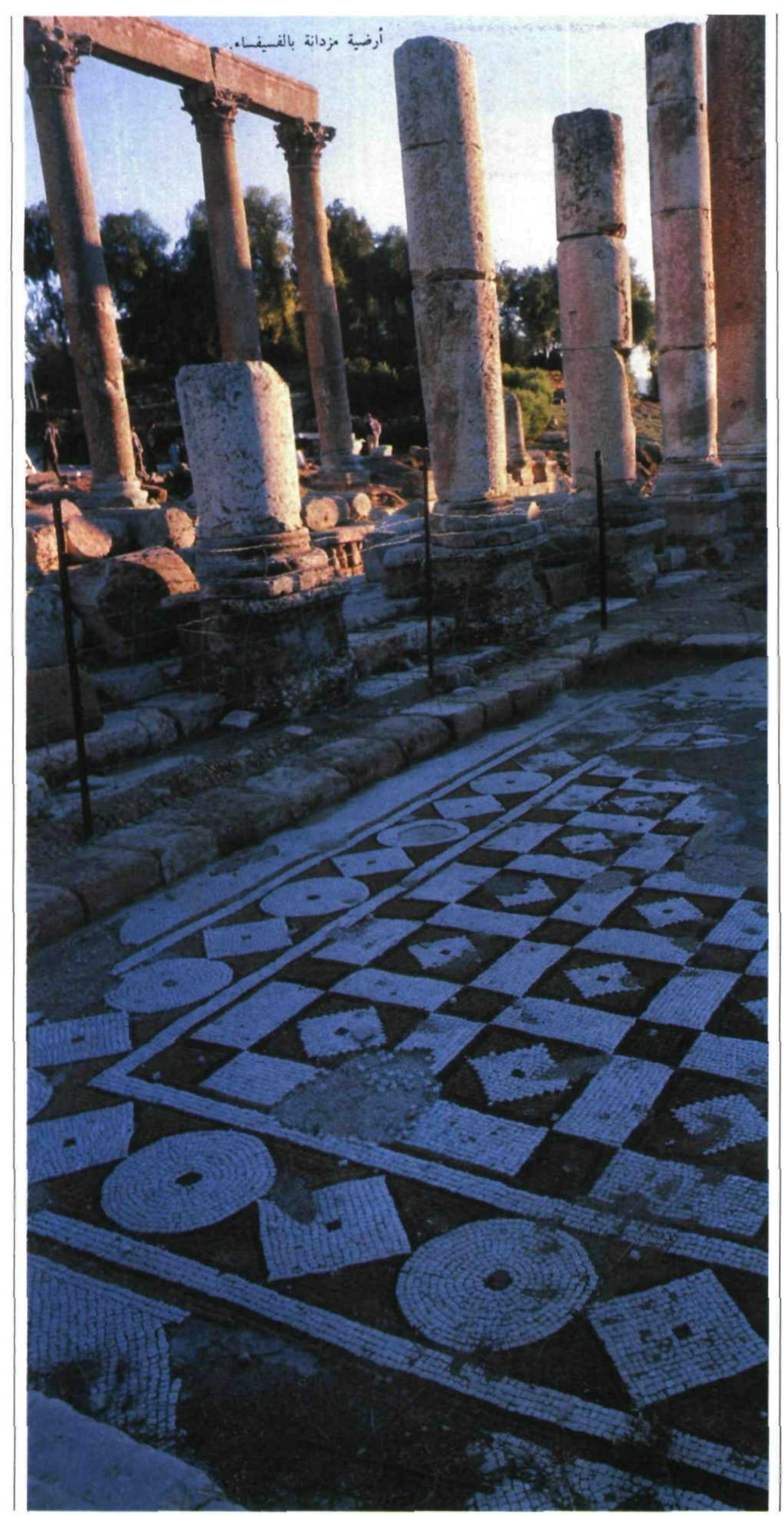
طبقة فحل (بيلا)

تقع أطلال هذه المدينة على مقربة من قرية «خربة فحل» الحديثة، على السفوح الشمالية المطلة على وادي الأردن، على بعد نحو ٨٥ كيلومترا من عمان. وكانت هذه البقعة الجميلة مصدر جذب منذ أقدم العصور نظرا لتوفر المياه في وادي جرم الموز على مدار السنة، وهو واد خصيب يفصل «تل الحصن» الأثري عن «خربة فحل». ولعل أهمية وعظمة هذه المدينة تكمن في موقعها الجغرافي على مفترق الطرق التجارية، فالقوافل القادمة من المنطقة الواقعة غرب نهر الاردن كانت تمر بها، وتلك التي تأتي من الجنوب متجهة الى سوريا كانت تتوقف فيها. وتدل الحفريات التي قامت بها بعثة الآثار الامريكية وبعثة الآثار الاسترالية خلال السنوات العشرين الماضية على أن هذه البقعة كانت مأهولة منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وتذكر الكتابات التي عثر عليها في «سقارة» في مصر على مجموعة من التماثيل الصغيرة، أسماء مدن خضعت لحكم الفراعنة منها «بيهلوم» أي «طبقة فحل»، ثم تمردت على حكم الفراعنة حتى اخضعها «تحتمس الثالث» نحو عام ١٤٧٨ق.م. وتذكر مخطوطات «تل العمارنة» المدونة باللغة الأكادية مدينة «بيلا» في الضفة الشرقية لنهر الأردن. وفي سنة ٣١٠ق.م. توجه اليها مستوطنون مقدونيون وبدلوا اسمها من «بيهلوم» الى «بيلا» كي يتذكروا عاصمة مقدونيا مسقط رأس الاسكندر الكبير. وخضعت «بيلا» لحكم السلوقيين ثم الانباط الى أن احتلها القائد الروماني «بومبيوس» وضمها الى حلف الديكابوليس، فأخذت تنعم بالهدوء والاستقرار والازدهار. وفي سنة ٦١٤م اجتاحتها الجيوش الفارسية فدمرت معابدها وقتلت الكثيرين من سكانها. وفي سنة ٦٣٥م استسلمت مدينة «بيلا» الى الصحابي أبي عبيدة ودخلت في الحكم الاسلامي. وفي عام ٧٤٦م حدثت هزة أرضية عنيفة دمرت معالمها. وتضم الآثار الباقية في «بيلا» هيكلا رومانيا ومدرجا وشارعا تحيط به أعمدة ذات تيجان كورنثية، ونافورة ضخمة، وبعض المعابد ويقع معظمها على الجانب الجنوبي من تل الحصن.

الحمامات الرومانية في «جادارا» على مقربة من مدينة اربد الحديثة.

تغص الساحات والشوارع في مدينة جرش الأثرية بزواد مهرجان جرش الدولي للثقافة والفنون من مختلف أرجاء الاردن والبلاد العربية والاجنبية.

المدرج الجنوبي في جرش خلال المهرجان السنوي.



أرضية مزدانة بالفسيفساء.

أبـيلا

وتقع أبيلا على مقربة من مدينة أربد، ثاني أكبر المدن الأردنية، وتستغرق الرحلة اليها نحو ربع ساعة بالسيارة، ويعتبرها بعض المؤرخين القدامى امثال «بلينيوس» احدى مدن حلف الديكابوليس. لقد اجرى فريق من علماء الآثار الامريكيين بعض الحفريات في السنوات الخمس الماضية للوقوف على تاريخها. وقد دلت تلك الحفريات على أن أبيلا تعود الى العصر البرونزي أي الى نحو ٥٠٠٠ سنة. وقام فريق أثري فرنسي بدراسة المعالم الأثرية والمدافن الموجودة فيها، وخرج بمعلومات قيمة مفادها أن أبيلا ازدهرت كمدينة اغريقية متألقة في القرون الثلاثة الأولى للميلاد، وواصلت مسيرتها في العصر البيزنطي وانتشرت فيها المعابد. والزائر لهذا الموقع الأثري الواقع شمال مدينة اربد يشاهد كثيرا من الأعمدة ذات التيجان الكورنثية، التي لم تصمد لعوادي الزمن فتهاوت بعد أن كانت شامخة، بالاضافة الى بقايا المدرجات والساحات.

أم قـيس (جـادارا)

على أنقاض «جادارا» القديمة قامت القرية الحديثة «ام قيس» وتمتاز «جادارا» بموقع فريد، اذ تقع فوق ربوة مرتفعة شمال مدينة اربد، تطل منها على نهر اليرموك ومرتفعات الجولان وجبل الشيخ وجبل الطابور المكسو بالأشجار، كما تطل من علٍ على الاغوار الشمالية وبحيرة طبريا بمياهها الزرق الهادئة وعلى الحمة الاردنية ذات المياه الكبريتية الساخنة. وقد أحسن المقدونيون اختيار المكان الذي اسسوا فيه مدينتهم «جادارا» بعد وفاة الاسكندر الكبير. ووقعت «جادارا» تحت حكم البطالسة، ثم السلوقيين أثر استيلاء «انطيوخس الثالث» السلوقي عليها، فكان أن نعمت بالحضارة اليونانية، وظهر فيها عدد من الفلاسفة والأدباء، حتى لقد اطلق عليها «مدينة الفلاسفة» أمثال ملياغروس[1] وفيلوديموس. فهذا ملياغروس يقول في قصيدة له يصف نفسه: «جزيرة صور مربيتي، وجادارا موطني، وهي مدينة سورية وحضارتها يونانية. انبثقت عن اوقراطس، انا ملياغروس. أيها الغريب، كلنا نسكن وطنا واحدا هو العالم. وبعد أن شعرت بثقل السنين، حفرت هذه السطور قبل أن انحدر الى القبر». وكان «ملياغروس»، السوري الأصل، يتكلم اللغة الآرامية، واتقن اللغتين الفينيقية واليونانية. أما «فيلوديموس» فقد اشتهر بالشعر الغزلي، وسمي بهذا الاسم في قصيدة له تقول: «لقد وقعت في حب «ديمو» من باخوس، وليس هذا أمرا غريبا. ثم أحببت «ديمو» من ساموس، وليس هذا أمرا بالغ الأهمية. وللمرة الثالثة، احببت «ديمو» من ناكسوس، وهنا أصبح الأمر أكثر من مجرد مزاج،

(١) «الأردن تاريخ وحضارة آثار»، لويس مخلوف

الساحة العامة (الفورم) وهي على مقربة من المدرج الروماني في مدينة «فيلادلفيا» أي عمان، احدى مدن حلف الديكابوليس.

وفي المرة الرابعة أحببت أيضا «ديمو» من ارغوس — وهكذا. يبدو أن القدر نفسه قد اطلق علي اسم «فيلوديموس» أي «المحب للناس»: فأنا أشعر دائما بحاجة ملحة لشخص اسمه «ديمو».

وفي سنة ٦٣ ق.م. اجتاحت الجيوش الرومانية بقيادة «بومبيوس» سوريا وتمركزت في دمشق. ولقيت مدينة «جادارا» التي دخلت في حلف «المدن العشر» عناية من القائد الروماني اكراما لصديق له كان قد حرره من العبودية واسمه «ديمتريوس»، وكان قد ولد في «جادارا». وفي سنة ٦١٤م احتلتها الجيوش الفارسية ودمرت معابدها، وفي سنة ٦٣٥م احتلتها الجيوش العربية الاسلامية بقيادة «شرحبيل بن حسنة» في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وتعرضت «جادارا» فيما بعد لهزات أرضية عنيفة دمرت ما تبقى من معالمها الحضارية من مدرجات وأسواق وحمامات ومقابر وشوارع مزدانة بالأعمدة الفخمة. والزائر لها اليوم يرى معالم أثرية بارزة، تشهد على فخامة «جادارا» في العهود الغابرة. ومن بين معالمها الباقية مدرج كبير مبني من حجر البازلت ينطلق منه شارع يتجه نحو الغرب ترتفع على جانبيه الأعمدة ذات التيجان الكورنثية الرائعة، وبقايا «النمفيوم» أي نافورة الماء، التي كانت المياه تصل اليها عبر قناة من عين قريبة من «تل الرميث». وهناك اطلال البازيليك المبلطة، وهي ذات أعمدة من حجر البازلت والحجر الكلسي وتحمل التيجان الكورنثية الطراز. ومدرج آخر في الجهة الغربية أصغر حجما من المدرج الشمالي. ويوجد في عمق المسرح تمثال من رخام أبيض يمثل امرأة جالسة على كرسي تزين أرجله رؤوس الاسود، وتحمل بيدها قرن الخصب، بالاضافة الى مجموعة من المقابر ذات الساحات البديعة الأشكال تزدان بأعمدة من الطراز الكورنثي، هي غاية في الروعة والفن المعماري. وتقف «جادارا» كموقع أثري بارز على قدم المساواة مع جرش والبتراء في الاردن.

تلك كانت جولة سريعة على بعض المدن التاريخية العريقة في الأردن، والتي كانت تؤلف جزءا كبيرا من حلف الديكابوليس□



بقايا الأعمدة في «بيلا».

بتصرف عن «ارامكو وورلد»
عدد: نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٥
تصوير: رامي خوري وعماد نصرالله

ظاهرة انخفاض مستوى أداء العاملين: التشخيص والعلاج

بقلم: الأستاذ سهيل فهد سلامة / الرياض

مقدمة

يمثل الانسان سواء من الناحية السلوكية أو النفسية او الجسدية، واحدا من أهم العوامل الحاسمة والأساسية في التأثير على فعالية وكفاءة أي مؤسسة ينتمي اليها. وقد يرجع ذلك الى الاختلافات الكبيرة بين الأفراد وخاصة في المقدرة والجهد والذكاء والدوافع والشخصية وغيرها. ومن الطبيعي جدا أن تنعكس هذه الاختلافات بين الأفراد على مستويات الأداء والسلوكيات، الأمر الذي يتطلب جهدا مضاعفا من قبل الجهاز الذي يعمل فيه للتعرف الى هذه الاختلافات واختيار الأسلوب المناسب لتقويمها وتوجيهها وتطويرها.

وتبدو هناك مؤشرات عديدة وواضحة على زيادة اهتمام المؤسسات العامة والخاصة في الفترة الحالية لموضوع الاختلافات الفردية للعاملين. ويرى بعض المفكرين ان وجود نوع من التشابه أو التساوي في اداء الأفراد وانتاجيتهم هو أمر صعب للغاية ولا يمكن تحقيقه بشكل عام. وذلك لتأثير عاملي الزمن والبيئة الخارجية في ابراز هذه الاختلافات في مستويات اداء العاملين، كما أن للتغيرات التكنولوجية والثقافية والعلمية دورا كبيرا في ذلك.

ومن خلال هذه الدراسة سنقوم بتحديد الاطار العام للاداء المقبول وغير المقبول ومن ثم تحديد المتغيرات المختلفة والمؤثرة على انخفاض مستوى الاداء لدى بعض العاملين. وبعد تشخيص هذه الظاهرة سنحدد دور المؤسسة والرئيس المباشر بالاضافة الى الفرد نفسه في معالجة هذه الظاهرة للوصول في النهاية الى الأداء الأفضل والانتاجية الأعلى.

الاطار العام لتحديد الأداء المقبول وغير المقبول

تختلف مقاييس الاداء المقبول وغير المقبول باختلاف الأعمال والنشاطات التي يقوم بها الأفراد بالاضافة الى اختلاف الزمان والمكان المحددين لذلك. فما كان يعتبر اداء مقبولا في فترة سابقة قد لا يعتبر مقبولا في فترة لاحقة. وما كان يعتبر مقبولا في مؤسسة ما في مكان معين قد لا يعتبر مقبولا لمؤسسة مشابهة في العمل بمكان آخر. وبشكل عام يمكننا تحديد هذا الاطار من خلال تحديد المقاييس التي تستخدم للحكم على الأداء بأنه مقبول أو غير مقبول. ويمثل الأداء بشكل عام مدى قيام الموظف بمسئوليات العمل بالكفاءة والفعالية المطلوبتين التي تساهم في تحقيق أهداف المؤسسة[1]. ومن هنا تضع المؤسسة سياسة واضحة ومفهومة تمثل المقاييس التي على اساسها يتم التميز بين الاداء المقبول أو الضعيف. ومن هذه المقاييس[2]:

- **مقاييس الكفاءة**: وتمتاز بتحديد القدرات والمهارات والمعرفة العلمية والعملية اللازمة لتأدية العمل.
- **مقاييس الانتاج**: وتمتاز بعدد من الخصائص التي يجب أن تتوفر في مخرجات أداء الموظف مثل تحديد معدل الانتاجية، دقة العمل، الفترة الزمنية اللازمة للانتاج، نوعية العمل وغيرها.
- **مقاييس النتائج**: وتمتاز هذه المقاييس بالنتائج المترتبة على الانجاز ويمكن تحديد هذه المقاييس بردود فعل المستفيدين من الانجاز كالمستهلكين أو المراجعين او المؤسسة نفسها من خلال تحقيقها لأهدافها.

ومن هنا يتضح الاطار المقبول أو غير المقبول (الضعيف). بمجموعة من المتغيرات الاساسية التي قد تصلح لمختلف النشاطات والمواقع والمواقيت. ومن هذه المتغيرات أن يحقق الاداء المقبول نتائج ايجابية لانجاز عمل معين. ويدخل ضمن هذه النتائج نوعية العمل والفترة الزمنية اللازمة لانجازه بالاضافة الى تنمية مهارات وقدرات معينة في الفرد نفسه.

مداخل تشخيص انخفاض مستوى الأداء

نظرا للصعوبة البالغة في تحديد مستويات الاداء المقبول أو غير المقبول، فقد استعان المتخصصون والمارسون للعملية الرقابية فيما يتعلق بتقديم اداء العاملين، ببعض المؤشرات التي تساعد في ذلك. بالاضافة الى انها تعد مرتكزا اساسيا ومدخلا جيدا لاقتراح الأساليب المناسبة لتنمية وتطوير مستويات الاداء الموجودة. ويمكن تأطير هذه المؤشرات في مجالين رئيسيين هما:

أولاً: المؤشرات الداخلية:

وتتمثل هذه المؤشرات في العوامل الداخلية للفرد أو الموظف والتي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على انخفاض مستوى أدائه مقارنة بالمقاييس المحددة للعمل. ومن هذه المؤشرات:

- **الجهد والمقدرة:**

فالجهد والمقدرة عاملان أساسيان في تحديد مستوى أداء الموظف. ولا شك أن العلاقة التي تربط الجهد والمقدرة بالاداء علاقة طردية تماما. فالاداء الأعلى هو نتاج الجهد والمقدرة الأكبر. وقد أظهر كثير من الباحثين والمفكرين وجود علاقة وارتباط بين مقدرة الموظف وجهده. فالجهد المقدم من الموظف يعتمد بشكل أساسي على مقدرته ومستوى التحفيز لديه، بحيث يزداد الجهد المبذول بزيادة المقدرة ومستوى التحفيز. كما تبين أيضا وجود اختلافات بين الاناث والذكور في تحقيق نفس القدر من الانجاز، حيث تقدم الاناث جهدا أكبر لتصل الى المستوى المطلوب من الاداء. وبمعنى آخر يتمتع الذكور بمقدرة أعلى في اداء الأعمال[3]. ونظرا لأهمية المقدرة في تحديد مستوى الأداء وتأثيرها على الجهد المقدم من الموظف، فانه ينظر اليها كوعاء يمثل مجموعة من القدرات الجسدية والفنية والفكرية. وقد تزداد او تنخفض هذه القدرات متأثرة بعوامل عديدة من ضمنها مستوى الذكاء، الصفات الشخصية، التربية البيتية، البيئة المحيطة، عوامل وراثية وغيرها. وبشكل عام تكون هذه القدرات غير ثابتة بحيث يمكن التأثير فيها وتنميتها أو تغيّرها من خلال برامج التعليم والتدريب بالاضافة الى تحديد متطلبات ومواصفات العمل وتعديلها وتطويرها[4]

التحفيز:

تؤثر سياسة التحفيز المادية والمعنوية في رفع مستوى أداء الموظف. وقد تشتمل تلك السياسة على متغيرات كثيرة منها البيئة المحيطة بالعمل، تقدير

---

(1) Patricia King. Performance Planning & Appraisal. Mc Graw Hill Pub. Co., N.Y. 1984, P. 92.

(2) Martin E. Smith, Measurement And Validation Issues. In Judith W. Springer. (Ed.) Job Performance Standards and Measures. ASTD. Wisconson: 1980, PP. 196—218.

(3) Virginia E. O'leory. Performance Evaluation. A Social Psychology Perspective. In Frank Landy (Ed.), Performance Measurement and Theory. Lawrence Elbaum Ass. Inc., N.J: 1983, PP. 207—212.

(4) Herbert G. Heneman III & Others. Managing Personnel and Human Resources. Irwin Pub. Co., Ill: 1980, P. 78.

واحترام الموظف، حسن التعامل والتخاطب، اشباع رغبات واحتياجات الأفراد، المكافآت والتعويضات وغيرها. وتتناسب سياسة التحفيز طرديا مع مستوى الأداء، بحيث يرتفع مستوى الاداء مع توفر السياسة التحفيزية المناسبة. والا انعكست سلبيا على اداء الموظف وتفشت مضاعفاتها المتنوعة على معدل الغياب وارتفاع الاصابات في العمل وانخفاض مستوى الدقة في النتائج بالاضافة الى انخفاض الرغبة في المشاركة والعلاقات مع الزملاء الآخرين في العمل (٥).

وقد أكد «ديفيد ماكليلند» وزملاؤه في هذا المجال، بأن دوافع الانجاز متوفرة لدى الجميع ولكن بنسب متفاوتة. فهي ترتفع عند البعض وتنخفض عند البعض الآخر بسبب الظروف البيئية والوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي ينمي ويطور مثل هذه الدوافع لدى الأفراد. ويرى ماكليلند أيضا بأن دوافع الانجاز تتفاوت بين الذكور والاناث حيث ترتفع عند الذكور عن الاناث. كما أن مفهوم الانجاز يختلف لدى الذكور عن الاناث، بحيث يهتم الذكور في نتائج الانجاز من نجاح أو فشل، في حين تركز الاناث على النواحي التفصيلية لاداء العمل (٦).

ثانيا: المؤشرات الخارجية:

وتتمثل هذه المؤشرات بعدد من العوامل الخارجية عن نطاق الموظف ولكنها تؤثر بشكل كبير في تحديد مستوى ادائه. ومن هذه المؤشرات:

- **طبيعة التنظيم الرسمي:**

تتمثل طبيعة التنظيم الرسمي بعدة متغيرات تنظيمية من أهمها: تحديد الواجبات والمهام للموظف، وضوح اجراءات العمل، العدالة والموضوعية في توزيع أعباء العمل، لوائح وأنظمة موحدة ومعرفة للجميع، نظام فعال لتقديم الاداء، اهتمام بتدريب العاملين وغير ذلك من الأمور التي تؤثر على تحديد مستوى اداء الموظف.

- **طبيعة التنظيم غير الرسمي:**

لقد بينت نتائج دراسات «هاوتزون» التي قام بها الباحث «التون مايو» أهمية الجماعات في العمل، حيث يتأثر الفرد بمفاهيم وسلوكيات وتوجيهات الجماعة التي ينتمي اليها وبالتالي يسلك الفرد سلوكا فرديا معبرا في مضمونه عن السلوك الجماعي او التنظيم غير الرسمي. وقد اثبتت هذه الدراسات أهمية الحوافز المعنوية في العمل واعتبارها أكثر فاعلية من الحوافز المادية في رفع مستوى الأداء وزيادة الرضا الوظيفي. ومن الطبيعي أن تنعكس طبيعة التنظيم غير الرسمي على التنظيم الرسمي اذا ما تم انتهاج سياسة ادارية سليمة ليصبح دورها مكملا وليس متعارضا مع التنظيم الرسمي (٧).

إن الأفراد العاملين في المؤسسة لا يعيشون بشكل منعزل، فهم ابناء البيئة المحيطة بهم، ولذا فهم يتأثرون ويؤثرون في سلوكيات وتصرفات الأفراد الذين يعيشون ويعملون معهم، وقد فسرت نظرية التعلم الاجتماعي موقف هؤلاء الأفراد من خلال ملاحظة سلوكياتهم (٨). فالفرد يقوم بمحاولة التعلم والتقليد ليتكيف مع الظروف المستقبلية. لذا فان المؤسسة تنظر الى مدى ما ينعكس على مستوى الفرد والجماعة من خلال انخفاض المستوى الفردي في الاداء ودور المؤثرات الجماعية على ذلك السلوك.

بيئة العمل

يقصد ببيئة العمل عادة مجموعة المتغيرات المحيطة بالموظف أثناء العمل. ومن هذه المتغيرات ما يتعلق بالمستوى الشخصي للموظف مثل حجم وصعوبة العمل، اهتمام المسئول بمشاكل وظروف الموظف، ظروف البيئةالطبيعية للعمل كالتهوية والاضاءة، طبيعة التغير في تكنولوجيا العمل ومدى تهيئة الموظف نفسيا للتغير، توفر الأمن الصناعي والوظيفي في العمل وغيرها. وتتناسب هذه المتغيرات طرديا مع مستوى اداء الموظف بحيث يرتفع مستوى الاداء كلما توفرت البيئة المناسبة للعمل .

مداخل معالجة انخفاض مستوى الأداء

تسعى المؤسسات المتخصصة دائما الى وضع أساليب ومناهج تنموية شاملة، تراعي فيها ظروفها وامكانياتها ومواردها المتاحة. ويفترض أن تحتوي هذه المناهج على سياسات معينة لمعالجة انخفاض مستوى الاداء لدى بعض الموظفين وتنمية وتطوير الاداء لدى البعض الآخر. وتقوم كل من المؤسسة والرئيس المباشر بتطبيق ذلك بالاضافة الى دور الموظف نفسه في تحقيق هدف المعالجة.

أساليب المعالجة على مستوى المؤسسة

هناك ثلاثة أساليب أو مناهج رئيسية على مستوى المؤسسة هي: (٩).

- **أسلوب الوقاية:**

ويرتكز هذا الأسلوب على كافة النواحي التي تسبق عملية التوظيف. كاتباع النهج السليم في البحث عن الكفاءات، وعمل المقابلات المختلفة للمتقدمين للعمل، واجراء الاختبارات المعروفة كالاختبار النفسي والمقدرة والشخصية وغيرها. بالاضافة الى الوضع الجسدي والصحة العامة للشخص. وهذا الاسلوب لا يعالج الضعيف في الاداء. الا أنه يؤدي الى التقليل من احتمالات وجود اشخاص غير اكفاء أو غير قادرين على تطوير مستوى ادائهم مستقبلا.

- **اسلوب التصحيح:**

ويتمثل هذا الاسلوب في استخدام المنهج العلمي في البحث عن أسباب المشكلة الحقيقية الكامنة وراء انخفاض مستوى الاداء. وبعد هذه المرحلة الصعبة يتم اتخاذ العلاج المناسب لطبيعة المشكلة. كاستخدام التدريب في حالة تدني أو عدم استغلال قدرات الموظف. او بانتهاج سياسة تحفيزية مناسبة تتلاءم والوضع السلوكي او الاحتياجات الانسانية للموظف. ويعتبر هذا الاسلوب من انجح وأفضل الأساليب المستخدمة في معالجة هذه الظاهرة.

- **أسلوب الثواب أو العقاب:**

ويتمثل هذا الاسلوب باستخدام سياسة التعزيز او التقوية الايجابية والسلبية المترافقة مع مستوى الاداء. وتشمل سياسة التعزيز الايجابية كافة الوسائل المشجعة لتنمية وتطوير سلوك أو مستوى اداء معين كالمكافآت والتقدم الوظيفي وخطابات الشكر وغيرها. أما سياسة التعزيز السلبية فتشمل كافة الوسائل المتاحة للحد من سلوك أو مستوى أداء معين كأسلوب الحسم والانذارات والتهديدات وغيرها. ويميل معظم المفكرين الى استخدام أسلوب الثواب بدلا من العقاب بدليل وجود كثير من المضاعفات النفسية والجسدية المترتبة على ذلك. ولكن اذا ما استخدم اسلوب العقاب فيجب أن يكون له ما يبرره بالاضافة الى وجود عدالة في العقاب كما هي الحال في الثواب.

أساليب أو مناهج المعالجة على مستوى الرئيس المباشر:

يقوم الرئيس المباشر أو المشرف بدور كبير في معالجة انخفاض مستوى اداء موظفيه. فهو الأكثر ارتباطا ومعرفة بظروف مرؤوسيه وطبيعة عملهم. ويفترض قبل البدء في عملية المعالجة، أن يأخذ بعين الاعتبار كثيرا من العوامل الهامة بالنسبة للموظف والمؤسسة خاصة فيما يتعلق بمدة خدمة الموظف وتقارير الاداء السابقة، ومعدل الغياب السنوي، وكذلك ظروف الموظف الشخصية والاجتماعية، والمركز الوظيفي له، والتكاليف المادية المترتبة على المعالجة وغيرها. ويتضح دور الرئيس المباشر في النواحي التالية:

---

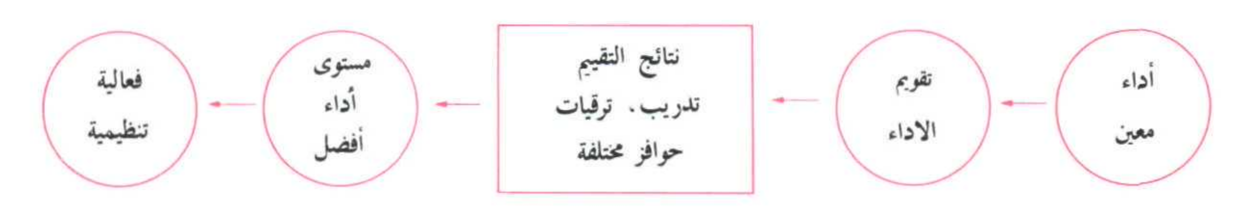
(٥) W. Clay Hamner. The Importance of Climate, Structure and Performance Consequences. In W. Hamner & F. L. Schmidt (Ed.), Contemporary Problems in Personnel. St. Clair Press, Ill: 1974, PP. 262—264.

(٦) Heinz Heckhausen. The Anatomy of Achievement Motivation Acad. Press, N. Y: 1967, P. 413.

(٧) روبرت سلتونستال. العلاقات الانسانية في ادارة الاعمال. (ترجمة احمد سعيد دويدار وآخرين). مكتبة نهضة مصر. ١٩٦٦ (ص٤٥٨ — ٤٧٢).

(٨) R. Mansfield. Organizational Climate: Can It be Controlled? In K. D. Duncan & others. (Ed.), Changes in working life. John Wiley & Sons., 1980, P. 295.

(٩) Lawrence L. Steinmetz. Managing The Marginal And Unsatisfactory Performer. Addison—Wesley Pub. Co. Calif: 1969, PP. 56-87.



◦ **فعالية تقويم الاداء الوظيفي:**

يعتبر تقويم الاداء الوظيفي واحدا من الأساليب المتبعة في قياس وتحديد اداء الموظف، وتحسس مواطن الضعف والقوة الموجودة لديه. وتأتي فعالية تقييم الاداء الوظيفي من خلال توفر نظام فعال للتقويم يتميز بوضوح الأهداف، محدد المقاييس، سهل التطبيق والتنفيذ، فعال في نقل التغذية المرتدة الى المرؤوسين وغيرها. ويفضل دائما أن تكون هناك مشاركة فعالة بين الرئيس والمرؤوسين لتحديد هذه المتغيرات المتعلقة بتقويم الاداء، وذلك لزيادة فعاليته وتقبل نتائجه من قبل المرؤوسين وتأكدهم من عدالته وموضوعيته.(١٠) ويمكن توضيح دور تقويم الاداء الوظيفي في معالجة انخفاض مستوى الاداء بالشكل أعلاه.

وتزداد فعالية نظام تقويم الاداء الوظيفي من خلال عدالة وموضوعية الرئيس المباشر في تقويم مرؤوسيه واعتماده بشكل علمي على حقائق ومستندات وسجلات حقيقية بدلا من التخمين والعشوائية وتأثير العلاقات الشخصية. كما أن لمقابلة التقويم التي تتم بين الرئيس والمرؤوس بهدف مناقشة تقرير الأداء السنوي، دورا بارزا في المعالجة. فيتعرف الموظف الى نواحي القصور الموجودة لديه ويناقشها مع رئيسه المباشر ويتعرف إلى الحلول العملية لازالتها.

اسلوب أو منهج المشاركة

يتميز هذا الأسلوب بانتهاج الاتجاه الحديث في تطبيق مفاهيم العلاقات الانسانية. ويأتي هذا التطبيق من خلال ما يسمى بالادارة بالاهداف، بحيث يتم مشاركة المرؤوسين في تحديد الاهداف ووضع الاقتراحات ومناقشتها مع الرئيس المباشر للخروج بتصور موحد للاهداف المراد تحقيقها خلال فترة زمنية محددة. ان تطبيق هذه الاستراتيجية يتطلب امكانات وخبرات معينة في المرؤوسين، ولذلك يحجم بعض الرؤساء عن تطبيقها علاوة على شعور بعضهم بفقدان جزء من سلطاتهم الادارية من خلال عملية المشاركة.

ويمكن لهذا الاسلوب أن يحقق ايجابيات عديدة على مستوى المؤسسة أو الموظف، فبالاضافة الى تحقيق مستوى الاداء المطلوب، فهو يساهم في رفع الروح المعنوية للعاملين ويعمق من التزامهم وتمسكهم بالمؤسسة. وبالتالي تقل معدلات الغياب ودوران العاملين، كما انه يزيد من امكاناتهم وخبرتهم في صياغة الأهداف وتقديم الاقتراحات العملية والمنطقية(١١).

(١٠) Patricia King. Op. Cit., PP. 120—124.

◦ **دور الموظف في المعالجة:**

يفترض ان يقوم الموظف بدور خاص في المعالجة يقابل دور المؤسسة والرئيس المباشر. ويستطيع الرئيس المباشر بعد تعرفه الى ظروف الموظف واستعداداته ورغبته ومحبته للعمل، أن يختار الأساليب العلاجية المناسبة. وليس هناك ما يمنع المشرف من تعويد الموظف وتنمية قدرته على المشاركة في تحديد الأهداف الشخصية التي يرغب في تحقيقها، ومن ثم مناقشتها معه للاتفاق على صيغة معقولة ومنطقية. وبعد فترة زمنية يقوم الرئيس المباشر بمتابعة هذه الأهداف مشاركة مع الموظف، للتأكد من مدى تحقيقها أو ان هناك ضرورة لتعديلها طبقا للظروف المستجدة(١٢).

ونعتقد بأن دور الموظف في تحسين مستوى أدائه، لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يكون رد فعل لسياسة المؤسسة أو الرئيس المباشر فقط، بل من الواجب اعتبارها قضية ذاتية تعبر عن قناعة واستعداد وطموح الشخص في التطور والتقدم والمنافسة الشريفة مع الآخرين.

الخلاصة

بيّنا في هذه الدراسة وجود ظاهرة خطيرة في عصرنا الحالي وفي منطقتنا الجغرافية بالتحديد والمعروفة بالعالم الثالث أو الدول النامية ألا وهي ظاهرة انخفاض مستوى اداء العاملين. وللبحث في هذه الظاهرة بشكل علمي وموضوعي كان لا بد لنا من التعرف الى أسبابها والظروف التي تساهم في زيادتها وخاصة فيما يتعلق بامكانات الموظف نفسه علاوة على الظروف الخارجة عن نطاقه. وقد ركزنا على أهم المداخل الرئيسية لمعالجة هذه الظاهرة ودور كل من المؤسسة بشكل عام والرئيس المباشر والموظف بشكل خاص.

وبالرغم من كل المحاولات الجادة التي تقوم بها المؤسسة أو الرئيس المباشر لتطوير مستوى اداء الموظفين، الا أن هناك اهمالا شديدا ورغبة مفقودة من جانب الموظف نفسه. وفي مثل هذه الحالة ستضطر المؤسسة الى اتخاذ منحى آخر لمعالجة هذه الظاهرة والذي قد يتمثل في تطبيق اجراءات الفصل النهائي له، وذلك حرصا منها على توفير العنصر البشري الفعال الذي يساهم في تحقيق الأهداف المنشودة للمؤسسة وللعاملين فيها ☐

(١١) علي عبدالوهاب. ادارة الأفراد «منهج تحليلي» المنظمة والادارة والناس. مكتبة عين شمس، القاهرة: ١٩٧٤ (ص٣٩٦ — ٤٠٠).

(١٢) Lawrence L. Steinmetz. Managing The Marginal and Unsatisfactory Performer. Addison — Wesley Pub. Co., Calif.: 1969, PP. 25—30.

قائمة المراجع

المراجع العربية:

١ — روبرت سلتونستال. العلاقات الانسانية في ادارة الأعمال. (ترجمة احمد سعيد دويدار وآخرين).

٢ — علي عبد الوهاب، ادارة الأفراد. «منهج تحليلي» المنظمة والادارة والناس. مكتبة عين شمس، القاهرة: ١٩٧٤.

المراجع الاجنبية

1. Hamner, W. Clay. The Importance of Climate, Structure and Performance Consequences. In W. Hamner & F. Schmidt (Ed.), Contemporary Problems in Personnel. St. Clair Press, Ill.: 1974.
2. Heckhausen, Heinz, The Anatomy of Achievement Motivation. Acad. Press, N. Y.: 1967.
3. Heneman, Hubert E. and Others. Managing Personnel and Human Resources. Strategics. and Programs. Irwin Pub. Co., Ill.: 1980
4. King, Patricia. Performance Planning and Appraisal. Mc Graw Hill Co., N.Y.: 1984.
5. Mansfield, R. Organizational Climate: Can it be Controlled? In K.D. Duncan and Others (Ed.), Changes in Working Life. John Wiley & Sons Ltd., N.Y.: 1980.
6. O'leory, Virginia E. Performance Evaluation. A Social Psychology Perspective. In F. Landy (Ed.), Performance Measurement and Theory. Lawrence Erlbaum Ass. Inc., N.J.: 1983.
7. Smith, Martin. Measurement and Validation Issues. In J. W. Springer (Ed.), Job Performance Standards and Measures. ASTD, Wisc.: 1980.
8. Steinmetz, Lawrence L. Managing the Marginal and Unsatisfactory Performer. Addison. Wesley Pub. Co., Calif.: 1964.

من حصاد الكتب:

البدو والثروة والتغير دراسة في التنمية الريفية في الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان

تأليف: راينر كوروس وفريد شولتز
ترجمة: عبدالاله أبوعياش
عرض: عبدالله أحمد الشباط / الخبر

صدر هذا الكتاب عن قسم الجغرافيا بجامعة الكويت باشراف الدكتور عبدالله يوسف الغنيم. والكتاب كما يتضح من عنوانه يهتم بتلك التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي طرأت على الحياة القبلية وغيرت أنماط الحياة لدى السكان البدو الذين كانوا ينتجعون الصحراء ويتنقلون طوال العام بحثا عن الماء والكلأ كمورد رزق لهم ولماشيتهم، وبحث الآثار الايجابية والسلبية التي طرأت على حياتهم بعد أن تحولت تلك المجتمعات البدوية الى مجتمعات تهتم بالثروة والرفاهية. وقد ناقش المؤلف المشكلات التي واجهت الحكومات عند محاولاتها نقل تلك المجتمعات الى الحياة الحديثة.

يبدأ الكتاب بمقدمة عامة كتبها «فريد شولتز» حدد منها:

* التغيرات التي تعرضت لها المناطق البدوية في الشرق الاسلامي وكان أهمها:
— رسم الحدود الجديدة للدولة مما سبب تقييد حرية الحركة والانتقال بالنسبة للبدو.
— قيام سلطة عليا تخضع لها القبيلة قضى على استقلاليتها.
— ادخال الوسائل الحديثة للمواصلات ادى الى اختفاء قوافل الابل فخسر البدو مصدرا من مصادر دخلهم.
— التوسع في زيادة مساحات الأراضي الزراعية قلص المساحات التي كان يعتمد عليها الرعاة.
* الخصائص الطبيعية للمناطق البدوية في جنوب شرق الجزيرة العربية وقد حددها الكاتب بثلاث عشرة منطقة تتميز كل منها بخصائص أو اختلافات تجعلها متميزة عن المناطق الأخرى.
* الوضع الجغرافي وعادات التنقل للجماعات البدوية وقد حدد منه:

— مناطق الرعي الصيفي والشتوي الممتدة أفقيا من مناطق الوديان والرمال وسفوح الجبال.
— مناطق الرعي الممتدة رأسيا والمستخدمة بشكل موسمي في المناطق الجبلية.
— مناطق الرعي الموسمية في منطقة الوادي الأوسط.

ثم يختم هذه المقدمة بالمامة قال فيها:

أساليب الحياة التقليدية وعادات التنقل والأنشطة الاقتصادية لبدو جنوب شرق الجزيرة العربية تتغير بسرعة، وقليل منها تمت المحافظة عليه في الوقت الحاضر كالثروة التي جلبها النفط فأدت الى قيام برامج تنموية اقتصادية غيرت بشكل جذري انماط الاستقرار وأسلوب الحياة للسكان المتنقلين الذين يشكلون غالبية السكان في الإمارات العربية المتحدة وعُمان.. اذ من الواضح أن البدو يشاركون في برامج التنمية الحديثة بطريقة ايجابية مجدية.

وفي الفصل الثاني يعالج راينزكوروس الأوضاع العامة للبدو في الإمارات العربية المتحدة بشيء من التفصيل فيبدأ بالتمهيد عن قيام دولة الإمارات عام ١٩٧١ وكان عدد السكان آنذاك لا يتجاوز نصف مليون نسمة الا انه عام ١٩٧٧م قفز الى ٨٦٢ الف نسمة على مساحة قدرها ٣٠,٠٠٠ ميل مربع. وقبل اكتشاف البترول، لم تكن لدى الإمارات موارد ذات مردود جيد اذ انها كانت تعتمد على الصيد وبناء القوارب والزراعة وتربية الحيوانات. وتتميز منطقة دبي بالتجارة البحرية.

وتنقسم دولة الإمارات من هذه النواحي الى منطقتين:
* منطقة زراعية ريفية في الشمال والشرق.
* منطقة بدوية في الجنوب والغرب.

ولقد عملت الحكومة على النهوض بهذه النواحي عن طريق الخطط التنموية الحديثة. وكان أهم الأسس التي قامت عليها تلك السياسة:

— تنمية متوازنة لجميع أجزاء الاتحاد من خلال الاستخدام المنظم للثروة الوطنية.
— تحقيق انفتاح الدولة من خلال تنمية البيئة الاساسية.
— توسيع وتحسين فرص التعليم للمواطنين اذ ارتفعت ميزانية التعليم من ٢٥,٥ مليون درهم عام ١٩٧٢م الى ٥٣٠ مليون درهم عام ١٩٧٦م وارتفع عدد المدارس عام ١٩٧٧ الى ١٨٥ مدرسة.
— توفير رعاية صحية شاملة اذ ارتفعت الميزانية الخاصة بالقطاع الصحي من ١٣ مليون درهم عام ١٩٧٢م الى ٣٠ مليون عام ١٩٧٦م.
— بناء مساكن ملائمة اذ بلغ عدد المساكن حتى نهاية عام ١٩٧٨ — ٦٥٨٤ مسكنا.
— تنويع مصادر الدخل وتوسيع الأنشطة الاقتصادية وذلك بزيادة عدد المطارات (مطار ابو ظبي والفجيرة والشارقة ودبي ورأس الخيمة ومطار العين) وكذلك توسعة موانيء في كل من أبو ظبي ودبي ورأس الخيمة وخورفكان وعجمان الى جانب المحطات الصناعية في دبي وابو ظبي وزيادة قدرات محطات توليد الكهرباء.
— تطوير وتحسين الانتاج الزراعي من خلال المحافظة على الوسائل التقليدية واستخدام الطرق الحديثة في تربية الحيوانات واختيار المحاصيل وطرق الحراثة، وذلك بتحسين نوعية المياه الجوفية وتوزيع الاراضي الصالحة للزراعة ومد الطرق داخل المناطق الريفية حيث بلغت اطوالها ٤١٤ ميلا حتى عام ١٩٧٦ و١٥٠٠ ميل من الطرق العامة.
— توسيع وتطوير وسائل صيد الأسماك وتعليبها اذ بلغ عدد قوارب الصيد عام ١٩٧٦م ١٠٦٥ قاربا، وبلغت حصيلة الصيد ٦٤٤٣٠ طنا.

هذا بالاضافة الى دعم الحرف التقليدية للنساء مما يعتبر تراثا ثقافيا بارزا ليس في دولة الامارات العربية وحدها وانما في منطقة الخليج العربي كوحدة اجتماعية مترابطة.

ويختم المؤلف دراسته: بأنه منذ الثلاثينات من هذا القرن وحياة التنقل على الابل داخل دولة الامارات آخذة في التدني لفقدان الجمل أهميته كوسيلة للتنقل، وانحسار صناعة الغوص على اللؤلؤ. الا أن البدء في انتاج البترول أدى الى تطور التنمية السريعة لمواطن البدو.

القسم الثاني من الكتاب والذي كتبه «فريد شولتز» فقد بدأه بمقدمة عن التطورات الحديثة في سلطنة عُمان مع الاشارة للجماعات السكانية المتحركة مضمنا ذلك وصفا مختصرا لسلطنة عُمان ويقول في هذا الصدد:

يتمكن البدو والرعاة الجبليون فقط من استغلال المراعي المتناثرة الواسعة بابلهم وغنمهم وأبقارهم. وحتى عام ١٩٧٠ كانت البلاد، بشكل أو بآخر، معزولة عن العالم الخارجي وبدون أية ملامح للتغيير. الا أن السلطان الذي جاء الى السلطة في ٢٣ يوليو عام ١٩٧٠م تبنى سياسات موجهة لتحديث البلاد كان من أهمها:

* التخلص السريع من حالة التخلف التي نجمت عن عزلتها حتى عام ١٩٧٠م.
* تطوير الاقتصاد ليشمل كل البلاد مع تنويع مصادر الدخل.
* تعميق الحس الوطني العُماني بادخال السكان القبليين في علاقة مباشرة مع الحكومة.

وقد استتبعت هذه الأهداف اجراءات غاية في المرونة ومنها:
* تحقيق حد أدنى من الأجور يتناسب مع مستوى المعيشة.
* اعطاء اولوية التوظيف للعمال الوطنيين والغاء نظام استئجار العمال من الشيوخ.

الا أنه لم تجر اية محاولات من قبل الحكومة لتبني مشروعات تتضمن استقرارا اجباريا أو منح قسائم اراض كما هي الحال في الدول المجاورة. ولم تجر أية استراتيجية مركزة لدمج السكان المتنقلين في عمليات التنمية الحديثة في عُمان. غير أن الحكومة وضعت في حسبانها الرؤية المستقبلية لحياة الاستقرار فعمدت الى انشاء مجلس التنمية ليتولى التخطيط وتوجيه التنمية الاقتصادية وانيطت المهام التنفيذية بالوزارات المتخصصة كل على حدة. وكان من أهم ما تواجهه الحكومة الجديدة، الافتقار الى العناصر الفنية والادارية مما اضطرها الى الاعتماد على الخبرة الاجنبية التي ليس لديها أية افكار عن الأوضاع الاجتماعية والقبلية والطبوغرافية للبلاد.

وكان تطبيق النموذج الغربي بدون اعتبار للظروف المحلية قد أدى الى كثير من التناقضات التي استفادت الحكومة منها للدراسات المستقبلية. وكان من أهم المشاكل التي واجهتها الحكومة اتساع الرقعة وقلة عدد السكان.

وبعد ان تحدث المؤلف عن قاعدة التخطيط والتغييرات في منطقة التنقل وعادات التنقل والاستقرار، تعرض للحديث عن بدو عُمان في الداخل قائلا:

اعتاد البدو البقاء في منطقة الوادي الجنوبي وعلى حافة الربع الخالي ورمال دهيبة خلال الشتاء، وكانت مخيماتهم تقام بالقرب من آبار صغيرة غائرة في قاع الوادي. وكانوا يقضون أشهر الصيف بالقرب من الواحات عند سفوح مرتفعات عُمان. اما في الوقت الحاضر فيقضي البدو معظم العام بالقرب من الواحات أو الطرق المعبدة التي تربط بينها، والتي تيسر لهم الوصول الى المدارس والمستشفيات الحديثة. أما المساكن المبنية من الطابوق الاسمنتي، فيتم تزويدها بالكهرباء ويتوفر فيها تكييف الهواء وأجهزة التلفاز والثلاجات.

أما بدو سهول الباطنة فقد أقاموا في السنوات الأخيرة مساكن دائمة على الجانب الآخر من شريط الواحات الذي اعتادوا اقامة مخيماتهم عليه بالقرب من طريق مسقط — صحار.. وتتناثر المجموعات السكنية على طول الطريق.. وتقع في بعض اجزاء السهل الداخلي بالقرب من الحقول المزروعة التي منحتها لهم الدولة.

وفي ظفار تم توزيع ما بين ٦٠٠٠ و٧٠٠٠ قطعة أرض في كل من صلالة ومرباط في السنوات القليلة الماضية. وقد اخذت الدولة تشجع اقامة احياء سكنية يقيم فيها خليط من القبليين والحضر.

ثـم يضيف:

ويجب أن تتضح لدينا الفروق الرئيسية بين التنمية الاقتصادية للبدو في الداخل وخاصة قبيلة الدروع التي تتميز منطقتها بالثروة النفطية، والقبائل الأخرى مثل حينة ووهيبة والحراسيس حيث تفتقر الى ثروات معدنية، ويعتمدون في مصدر دخلهم على الصيد والعمل في الدول المجاورة. اما بدو ظفار، فيعملون كجنود ويتقاضون رواتب شهرية منتظمة مما اتاح لهم بناء مساكن لهم بالقرب من معسكراتهم، ويعمل قسم منهم في مجال المقاولات والتجارة.

أما الشواوي وهم البدو المتنقلون دائما سعيا وراء الرعي، فانهم يهاجرون باستمرار من موطنهم الاصلي الى تلك المناطق التي تتوفر فيها فرص أكثر للعمل لدى المؤسسات الجديدة.

ان الظروف الصعبة التي مرت بالقبائل خلال النصف الأول من هذا القرن وما قاسته من شظف العيش وضيق الموارد وما كانت تعانيه من الجهل والفقر والمرض، جعلها تخلد الى المتغيرات الجديدة وتتقبلها طائعة أو مكرهة للحصول على الأمان والمورد الثابت والهدوء النفسي.

كما انه لا يمكن وضع تقييم لحالة البدو الراهنة في عُمان، لأن التغييرات في تلك المناطق حديثة وما زالت مطردة. الا أن الحكومة من جانبها تشجع الجماعات السكانية على المشاركة الايجابية، في خطط التنمية الحديثة للبلاد.

والملاحظة الهامة على هذا الكتاب هي أن المؤلفَين قد اوردا اسماء بعض القبائل مثل الدروع وعقاري وحينة وهيبة وحراسيس، واشارا الى البلوشي، ومدى مشاركة هذه القبائل في خطط التنمية واستجابتها لمحاولات التوطين، فاتضح ان نسبة الاستجابة لخطط التنمية يتراوح ما بين ٣٠ و٩٠٪. لكنهما لم يشيرا الى دور قبائل الحبوس — الحجريين الحرث — بني بوحسن — بني حروض — بني رواحة — بني ريام — بني شكيل — العيريين — العوامر — المحاريق — بني هنا — اليعاقيب — بني قتب — بني كعب — وقبيلة بني ياس التي منها حكام دولة الامارات العربية المتحدة. فلقد شاركت كل تلك القبائل في الحياة العامة وتقاسمت مع غيرها ظروف الحياة حلوها ومرها الا أنه لم تجر الاشارة اليها في هذا الكتاب. وحتى الاشارة لقبيلة بني ياس جاءت مبتورة لم تتضح الا من خلال الاشارة الى الحكام. وكنت أتمنى لو أن المؤلفَين قد درسا هذه الناحية بتوسع، لأن ذلك سيعطي هذه الدراسة أهمية خاصة لكونها تأتي في الوقت الذي تسعى فيه حكومات مجلس التعاون الخليجي لوضع اسس الاستراتيجية الشاملة للنهوض بشتى المرافق انطلاقا من العلاقات الحميمة التي تربط شعوب هذه المنطقة، معبرة عن الروابط الأسرية الممتدة في كل جزء من أجزاء خليجنا العربي.

إن هذه الدراسة على صغر حجمها تعطي تصورا واضحا لحالة القبائل البدوية الآن، والتي يمكن أن تضمحل خلال العقدين أو الثلاثة عقود القادمة، فلا يبقى منها الا ذلك النسب الذي يفخر به العربي. لذلك ينبغي الاهتمام باوضاع البادية وتسجيل كل ما لديها من تراث انساني ومعرفة ادق التفاصيل عن حياتها قبل أن تندمج في خطط التنمية الطموحة الرامية الى التوطين والتمدن □

نجوى البحر

شعر: د. عزت شندي موسى / القاهرة

أيها البحرُ هل نسيتَ مراحي   فوق شطِّيك.. قانعاً بانشراحِي
أضربُ الماءَ في انتعاشٍ وريثٍ   وفتورٍ محببٍ مستباحِ
وعبيرُ الصبا يعطِّر جنبيك.. ويزري بريحك الفوّاحِ!
يوم كنا يا بحر في ميعة العمر وكان الشباب طلق الجناحِ
كل شيءٍ كساه منا رواءٌ   كرواءِ الضياءِ في الاصباحِ
كان ذوقُ الطعام حلواً شهياً   والأمانيّ في البسيط المتاحِ
كم سهرنا.. ولا نحنّ لنومٍ   في حلالٍ من متعةٍ ومباحِ

* * *

كيف ضاعت مع العنا متعةُ العيشِ وأبلى الهناء شوطُ كفاحِ
وافترقنا كل الى طلبِ العيشِ لقاصي المدى ونائي النواحِي
ثم منا من راح من غير عودٍ   في رحيلٍ لعالم الأرواحِ
فأخٌ لي قضى.. وكان غطائي   حينَ أعرَى.. وبردتي ووشاحِي
كان درعي اذا أصولُ..وسيفي   وخوافِي ان أجُل وجناحِي
وصديقٌ مضى.. وكنت أراه   نصبَ عيني في غدوَتي ورواحِي

* * *

قد خلفنا يا بحر جيلا قديما   وحثثنا الخطى لنفس الساحِ
مسرحٌ يلعب الجميعُ عليه   كالخيالات في دنى الأشباحِ
وخططنا على الرمالِ سطوراً   فمحَتْها يدُ الزمانِ الماحِي
.. سُنّةُ الدهرِ من قديمٍ.. لعمري   منذ عاد وتبّع وبِتاحِ

* * *

كم أنادي يا بحرُ فيك شبابِي   منذُ ولّى.. فلا يردُّ صياحِي
ثم أدعوكَ كيف ضاعَ لعمري   ليت شعري.. وليس من افصاحِ
أين جدّي وأين قد راح كدّي   أين جهدي مضى.. وأين كفاحي؟

ضاع عبرَ الزمانِ كسبي ووثبي   وتولى مع الزمان فلاحِي
بصماتُ الزمانِ عاثت بوجهي   بغضونٍ تحزّني كالرماحِ
وجراحُ الأيامِ غارَتْ بجسمي   ودها العينَ مبضعُ الجراحِ

* * *

أيها البحرُ ذلك الشعرُ.. حسبي   فترفّق!.. لا تنكأنَّ جراحي..

لماذا ترتعش الأرض أثناء دورانها؟

بقلم: د. محمد نبهان سويلم / القاهرة

منذ نحو مائة عام اكتشف تاجر امريكي من مدينة «بوسطون» يدعى «سايمون تشاندلر» ان محور دوران الأرض حول نفسها في الفضاء ليس ثابتا، واكتشف بالتالي ان الأرض ترتعش أثناء دورانها. وبهذا تم اكتشاف الظاهرة التي تعرف في علم الرياضيات باسم «الانحراف الايولليري» والتي تسمى عند تطبيقها على حركة دوران الأرض حول نفسها باسم مكتشفها أي «انحراف تشاندلر». لكن العلماء لم يستقروا على رأي واحد، منذ ذلك الحين، بشأن تفسير هذه الظاهرة أو الأسباب التي تدفع الأرض الى التذبذب كالبندول في مجال حركة مستمرة وغير منتظمة بين محورين لحركة دورانها الواحدة الاساسية حول نفسها.

وقد تقدم عالمان آخران بتفسير جديد لهذا الانحراف في حركة الارض بدعوى النشاط البركاني والى زلازل القشرة الارضية ويؤكدان ان نسبة ارتعاش الارض حول نفسها تزيد في الفترات التي تشهد زيادة ملحوظة في النشاط البركاني وفي الزلازل على طول أحزمة الزلازل.

والزلازل وفق المفهوم العلمي هي عبارة عن هزات أرضية تحدث من وقت الى آخر نتيجة تقلصات القشرة الأرضية وعدم استقرار باطن الأرض وتحدث على اليابسة وفي الماء على السواء، وقد تكون أفقية أو رأسية.

وهناك عدة نظريات حول ظاهرة الزلازل تشير الى أن مناطق عدم الاستقرار من القشرة الأرضية تتاخم عادة مناطق المرتفعات الجبلية، فحيثما توجد الجبال الشواهق توجد المناطق المؤهلة أكثر من غيرها لوقوع شروخ في القشرة الارضية بما يصحبها من زلازل نتيجة الاجهادات والضغوط التي تسببها كتلة الجبال على الاراضي المجاورة.

والنظريات التي تناولت الزلازل عديدة، منها نظرية الكتلة المعدنية السائلة في باطن الأرض. وهناك نظرية ترجع هذه الحرارة الى وجود مواد مشعة في قلب الأرض. ويعتقد كثير من العلماء بأن الغازات الكامنة في باطن الأرض سواء كانت سائلة أو غازية لها تأثير كبير في احداث اهتزازات عنيفة في قشرة الأرض. فهذه الغازات تنكمش احيانا، أو تتمدد احيانا أخرى بتأثير الحرارة الباطنية، وفي هذه الحال تحدث موجة من المد في اتجاه أفقي أو رأسي فينتج عنها الزلزال او الهزة الارضية التي تخترق طبقات الصخور في قشرة الأرض، وقد تتصدع القشرة تماما ويحدث تمزق شديد وتنطلق كبركان مدمر لا يُبْقي ولا يَذر.

واستنادا الى مفهوم اهتزاز الأرض أثناء الزلازل والبراكين، وفي محاولة لفهم صحة النظرية الجديدة انطلاقا الى محاولة التنبؤ بالزلازل، جمع العالمان الامريكيان وهما الدكتور «أ.م. جابونسكي» والدكتور «أ.ج. اوكونيل»، معلومات تضم ٢٣٤ زلزالا كبيرا وقعت فيما بين سنتي ١٩٠١م، ١٩٧٠م، وتبين مركز وقوة كل زلزال واتجاه موجة الحركة او الاضطراب الذي نشأ عن كل منها بالاضافة الى المعلومات المتاحة عن الزحف البطيء للقارات[1] «كتل اليابسة الكبرى» شمالا وغربا والذي يعتقد انه ينشأ اصلا بسبب حركة دوران الأرض حول نفسها، وقام العالمان المذكوران بقياس أثر كل زلزال على ارتعاشة الأرض.

وقد اثبتت الدراسات ان القطب الشمالي قد تحرك يمينا مسافة لا تزيد على سنتيمتر واحد في الفترة ما بين عامي ١٩٠١م و١٩٢٠م (حينما كانت أجهزة رصد الزلازل في بداية عهدها). لكن المسافة ازدادت اتساعا حتى عام ١٩٤٠م ثم تزايدت بعد ذلك بوضوح واطراد. ومما يثير الدهشة هو ان نتائج الدراسات الرياضية كانت متطابقة تماما مع القياسات العملية. ومعنى ذلك انه ان امكن رصد الظواهر المصاحبة لهذه الارتعاشات فان التنبؤ بالزلازل يكون ممكنا.

ومن هذه الدراسات ما أجراه عدد من العلماء على تسجيل الأصوات الصادرة من المناطق المعروفة بتعرضها للزلازل المدمرة، وهي الاصوات التي تصدر من النشاط الاهتزازي المتواصل في باطن الأرض الذي يقوى تدريجيا قبل أن يتحول الاهتزاز والارتعاش الى زلزال عنيف يقلب قشرة الأرض الصلبة ويدمر ما عليها. وقد اثبتت النتائج الأولية لهذه البحوث انها ستكون ذات نفع كبير من جراء توسع قاعدة دراسات التنبؤ بالزلازل قبل وقوعها بوقت كاف. وقد تم نشر البحث الذي قام به قسم المعادن والجيولوجيا في جامعة كاليفورنيا فكان من نتائجه أن تمكنت أجهزة فريق البحث الحساسة من رصد الأصوات الخافتة جدا والتي تتصاعد احيانا على فترات متباعدة وبدرجات متفاوتة في عدد من محطات الرصد تمتد على طول جبال الانديز على الساحل الغربي لامريكا الشمالية. كما تبشر النتائج الاولية للبحث السالف الذكر بزيادة امكانية التنبؤ بالزلازل العنيفة واوقات حدوثها بدقة عالية وان كان هذا لا ينفي بأن الاصوات المنخفضة لم توضح شيئا ذا بال ولم تساعد على الحدس بامكانية حدوث زلزال او عدم حدوثه، ولا يعلم احد على وجه الدقة ما

(١) راجع «القافلة» عدد ذي الحجة ١٤٠٢هـ.

اذا كانت هذه الاصوات صادرة من الطبقة الداخلية للقشرة الأرضية الملاصقة للجوف الملتهب او التالية لها مباشرة والتي لا تكف عن الفوران بسبب سيولتها الشديدة، فتصدر بالتالي هذه الاصوات.

ورغم هذه النتائج التي انعشت الآمال لدى العلماء في درء الأخطار الناجمة عن الزلازل فان ما حدث خلال فترة زمنية قصيرة قد خيب الآمال وبدد جهود العلماء، فاجتاحت الزلازل المدمرة مناطق شاسعة في آسيا واوروبا وافريقيا وامريكا اللاتينية دون أن يتمكن العلماء من رصد ذلك.

ورغم الاعتزاز الذي شعر به علماء الصين حينما اعلنوا انهم تمكنوا من التنبؤ بزلزال «هاي تشينج» عام ١٩٧٥م ورغم تمكن السلطات من انقاذ عشرات الألوف، رغم ذلك كله باغتهم زلزال «تان جشان» المروع الذي قضى على مدينة ضخمة برمّتها وعلى المناطق الصناعية الملحقة بها في ثوان معدودات، وراح ضحيته أكثر من مليون انسان وذلك في نوفمبر عام ١٩٧٦م. وقد أدى ذلك الى ضرورة العمل على تطوير شبكة من المعدات العلمية المتطورة وشبكات اخرى للرصد الشامل تستعين بمئات الألوف من الدراسات والملاحظات المجموعة من مناطق شاسعة واسعة، ثم تدرس وتستخلص علاقاتها وسلسلة ردود الأفعال المترتبة عليها حتى يمكن الإمساك بأول حلقة في سلسلة الاحداث الأرضية او غيرها مما يؤدي الى حدوث الزلازل.

المؤكد انه لا يوجد حتى الآن طرق فنية موثوق بها تماما للتنبؤ بالزلازل، فالجهود المبذولة للتوصل الى توقعات موثوق بها عن حدوث الزلازل تعتمد على البيانات التاريخية والمعرفة السريعة التطور عن التغيرات الفيزيائية للقشرة الأرضية، وحديثا أظهرت علوم الأرض المتصلة بموضوع الزلازل امكان استخدام الأرصاد الدقيقة وتحليل الظواهر للوصول الى درجة عالية من الدقة. ويركز الباحثون احيانا على ما يتلو الزلازل الكبيرة او المتوسطة من هزات صغيرة متلاحقة يطلقون عليها اسم «السرب» كتلك الهزات التي أصابت «سالونيكا» في اليونان قبل وبعد الهزة الرئيسية في ٢١ مايو ١٩٧٨م. بينما يركز باحثون آخرون على قياس سرعة تكوين وحركة امواج البحر في المناطق المعروفة باسم أحزمة الزلازل وان كانوا يؤكدون ان تزايد سرعة الموجات البحرية الصغيرة واهتزاز الماء على سطح البحر تصعب ملاحظته الا قبل حدوث الزلزال نفسه بمائة ثانية على أكثر تقدير، وهذا بالطبع وقت غير كاف لاتخاذ أي اجراء وقائي لمواجهة نتائج ارتعاش القشرة الأرضية وما يتلوها من دمار. ورغم العلاقة بين موجات المد البحري المفاجئة الضخمة وبين الزلازل فانه لم يحدث قط أن كانت موجات المد مفيدة في توقع زلازل تالية لها. ومنذ موجة المد التي أغرقت (٣٠) الف مواطن ياباني و٤٠٠ الف مواطن بنغالي في عام ١٩٦٠م. رغم كل ذلك فقد عرف الباحثون بان الزلزال كان يسبق موجة المد.

وقد اثبت الباحثون والعلماء اليابانيون انه أصبح في الامكان توقع الزلازل بدقة أكبر من ذي قبل، وقبل عدة أسابيع من وقوع الكارثة وذلك باستخدام متطوعين وهواة يزودون بمعدات علمية بسيطة للغاية ويعتمدون في جمع الملاحظات والمشاهدات والظواهر على درجة محدودة من التدريب، دون أن يغيروا من أعمالهم أو حرفهم او يتفرغوا لهذه الأعمال.

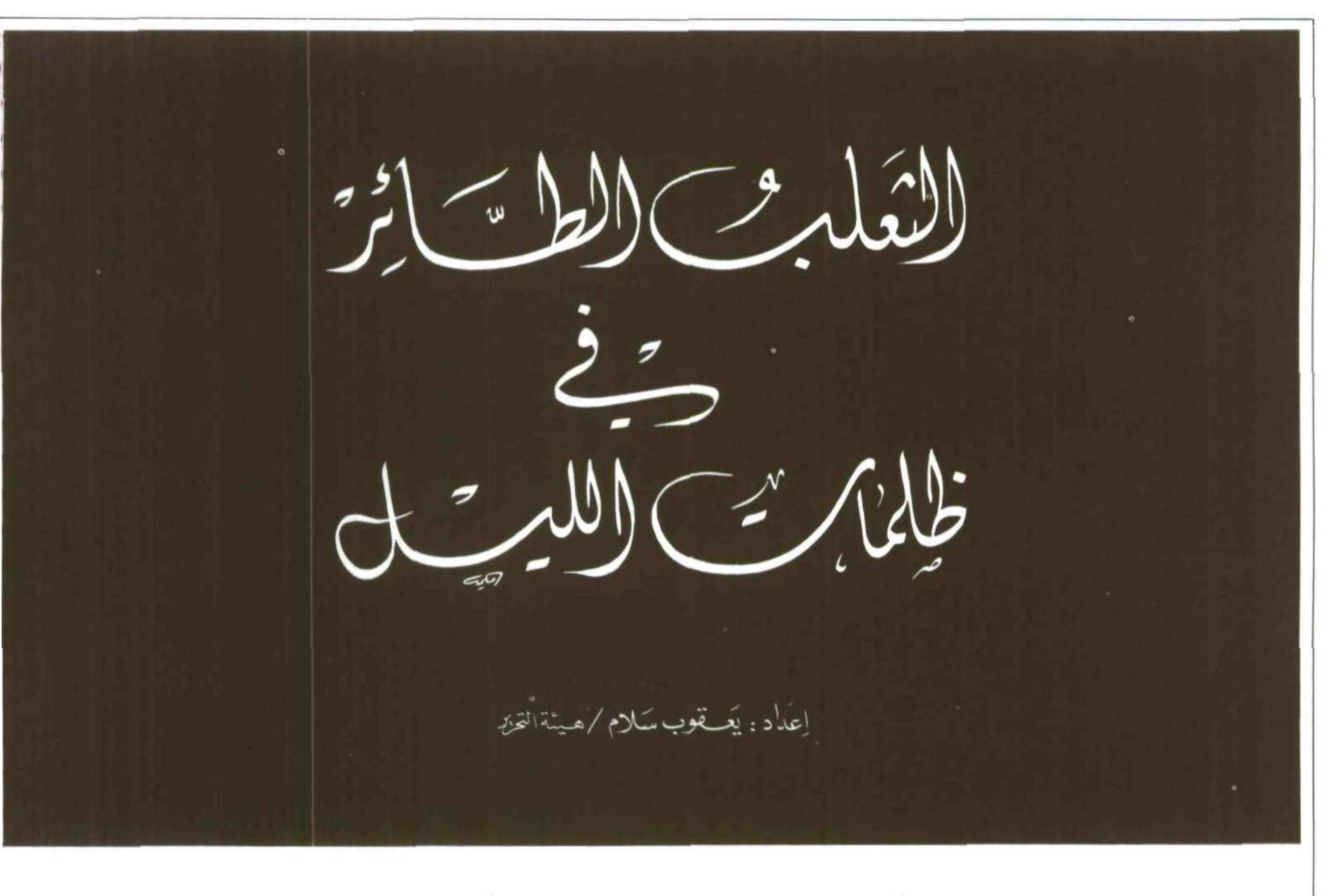
وقد أجرى العلماء اليابانيون دراسة ميدانية عام ١٩٧٨م اثر كارثة مدينة «كاراس» الايرانية التي دمرت عن بكرة أبيها، وذهب ضحيتها أكثر من ٢٥ ألف مواطن، وجاءت نتائج الدراسة بمعلومات يمكن أن تكون مقدمة طيبة بالنسبة لأولئك الذين يعيشون على شفا حفرة من الهزات الزلزالية.

ومن هذه الدراسات ما اثبته عالم ياباني من جامعة ناجوبا، بأنه من الممكن الاعتماد على ما تطلقه الصخور من غازات وأبخرة واستخدامها كمؤشر قوي للدلالة على قرب وقوع الزلازل، فقد لاحظ ان غازات الهيليوم، والنيتروجين، والأرجون تنطلق من الصخور بنسب مختلفة حينما تكون الصخور تحت ضغط معين مثلما يحدث للصخور قبل وقوع الزلازل، وتزداد هذه النسب كثيرا على ما هي عليه في الظروف العادية.

هذه المؤشرات بسيطة فعلا، لكن الانسان لا يستطيع رصدها بحواسه دون تدريب، وهي نفسها التي تشعر بها بعض الحيوانات مثل الخيول والقطط والفئران وبعض الطيور، فتثور اعصابها قبل وقوع الزلازل بوقت كاف إن لم يكن طويلا، ومن ثم تهجر المنطقة بسرعة قبل وقوع الكارثة. ولو امكن تدريب الناس على ملاحظة او شم تركيزات هذه الغازات أو جمع عينات منها بطرق سهلة من الشقوق الصخرية أو مياه الآبار او البحيرات على فترات وتحليلها كيميائيا بطرق ضوئية متقدمة، فقد يصبح من اليسير حساب هذه الكميات من الغازات.

وقد استغرقت التجربة الميدانية اليابانية هذه عامين لوحظ من خلالها انه قبل وبعد حدوث زلازل ترتفع نسبة الهليوم الى غاز الأرجون او غاز النيتروجين (الأزوت) الى غاز الأرجون ارتفاعا ملحوظا. والحقيقة ان نتائج هذه البحوث جعلت من الممكن استنتاج حجم وتوقيت الزلزال الوشيك الوقوع رغم استحالة تحديد موقعه.

وخلاصة القول إن الأساليب الفنية المستخدمة للتنبؤ بالزلازل لا زالت في مرحلة البداية، مما يستوجب توثيق التعاون بين العلماء ومضاعفة جهودهم لتطوير هذه الاساليب الفنية.فاذا كان الصينيون قد عرفوا ما لدى الحيوانات من قدرة على الاحساس بالزلازل قبل وقوعها منذ قرابة ثلاثة آلاف عام، فان علماء اليوم قادرون، باذن الله، على فهم هذه الحاسة عند الحيوان وكشف الغطاء عن ابعادها ومحاولة تقليدها بالأجهزة العلمية المتطورة التي قد تنبىء بالزلازل قبل وقوعها لتفادي كوارثها والتخفيف من وطأة دمارها □



الثعالب الطائرة، أو الخفافيش، مخلوقات تجوب الغابات والوديان بحثا عن الطعام ليلا، وهي تعيش في مجموعات كبيرة، وتتخذ من الكهوف والخرائب والأشجار الضخمة النخرة مساكن لها. وتتغذى فقط على الفاكهة الناضجة جدا، وهي أنواع عديدة قد تصل الى ألف نوع. لكن مجموعة واحدة منها، وهي الخفافيش التي يكثر وجودها في المناطق الحارة بامريكا، تتغذى على دماء الثدييات، وتفضل العيش في المناطق شبه الحارة حيث تقضي معظم وقتها معلقة من ارجلها متأهبة للاقلاع في أية لحظة. وهي كغيرها من المخلوقات، لها من فوائد ومضار على البيئة مما يدعو الى المحافظة عليها.

تصنيف الخفافيش

تندرج الخفافيش ضمن طائفة الثدييات — Mamalia، وتنقسم الخفاشيات «كيروبترا — Chiroptera» الى رتبتين هما: «الخفافيش الكبيرة — Megachiroptera» و«الخفاشيات الصغيرة — Microchiroptera». والرتبة الأولى منها تعرف بخفافيش الفاكهة والثعالب الطائرة، حيث توجد في المناطق الحارة وتتغذى على الفاكهة. وتبلغ المسافة بين جناحي أكبرها نحو ١٢٠ سنتيمترا. اما الرتبة الثانية فمعظمها من آكلات الحشرات.

أنواع الخفافيش المعروفة

- الثعلب الطائر — Flying Fox ، وقد يبلغ مدى طول جناحيه حوالي ١٢٠ سنتمترا.
- خفاش حدوة الفرس — Greater Horse Shoe Bat ، وهو قبيح الشكل بسبب وجود بروز على شكل حدوة الفرس على أنفه.
- الخفاش طويل الأذن — Long Eared Bat ، وهو صغير الحجم وله اذنان ضخمتان طويلتان تضاهيان طول جسمه.
- خفاش البلدغ — Bulldog Bat ، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأن وجهه يشبه في شكله وجه كلب البلدغ المعروف.
- خفاش مصاص الدماء — Vampire Bat، وهو يشكل خطرا على مزارع تربية المواشي لأنه يتغذى على امتصاص دماء الحيوانات الثديية.

والخفافيش هي الحيوانات الفقارية الوحيدة، اضافة الى الطيور، التي تستطيع الطيران. كما كان يوجد في العصور الغابرة مجموعة من الزواحف تسمى الزواحف الطائرة، الا ان هذه الزواحف قد انقرضت منذ ملايين السنين.

يطير معظم الخفافيش ليلا وينام نهارا، ويصطاد الصغير منها الحشرات الطائرة ليلا، ولكن أكلة الفاكهة منها تبحث عن أشجار الفاكهة لتلتهم الناضج منها فقط، الا انها في الوقت نفسه، قد تلحق اضرارا جسيمة ببساتين الفاكهة.

وتتخذ الخفافيش وضعا غير عادي عند الراحة والنوم، فهي تدلّي رأسها الى أسفل. وذلك عن طريق المخالب المقوسة في اقدامها الخلفية. وهي تقبض بأصابع القدم على الدعامة أو أي شيء تتدلى منه، وتكون مشدودة بالأوتار التي يشكلها ثقل الجسم.

وهناك القليل جدا من أنواع الخفافيش، التي تميل الى الهجرة، كما هي الحال بالنسبة الى بعض أنواع الطيور وذلك تفاديا للبرد واتقاء لعواقبه. ومعظم الخفافيش التي تعيش في الأجواء المعتدلة ينام طوال الشتاء في وضعه المعلق الغريب. ومع أن منظر الخفافيش ليس جذابا ابدا، فان بعض الناس يعتبرونها نذير شؤم حيثما تظهر، الا أنها في الواقع ليست كذلك. ونظرا الى كونها مخلوقات غريبة جدا فذلك لا يعني بالضرورة انها من المخلوقات الضارة. فالأغلبية العظمى منها ذات نفع، اذ تقضي على

وجبة من الحليب يتناولها رضيع الخفاش الاكتف أثناء تحليق أمه في الفضاء.

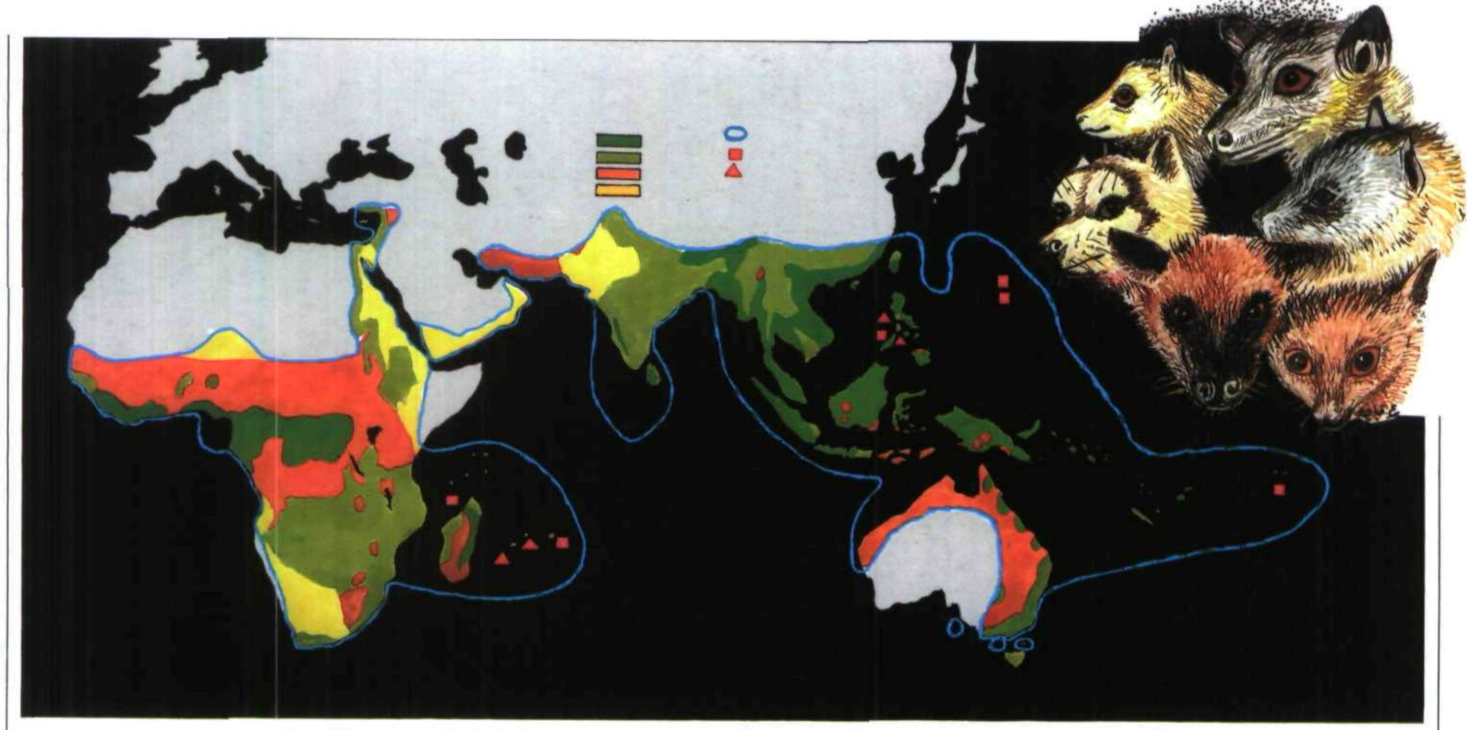
اعداد كبيرة من الحشرات. وعلى الرغم من أن الخفافيش تشبه الطيور الى حد ما ، فانها تنتمي الى الثدييات، وان اجسامها مغطاة بالفرو وليس بالريش كما هي الحال عند الطيور، ولها أسنان صغيرة حادة.

الثعالب الطائرة

هي أكثر أنواع الخفافيش وجودا في القارة الافريقية، وهي من الحيوانات الثديية الوحيدة على سطح الأرض التي تحلق في الفضاء باستثناء الطيور. وتوجد هذه المخلوقات في كل مكان تقريبا.. في الصحـراء وفي بعض الجزر المهجورة. وقـد تم التعرف الى حوالي الف نوع منها، وهي تشكل حوالي ربع تعداد الحيوانات الثديية المعروفة. وقد يزيد عدد الخفافيش في الغابات البكر على أي نوع من الثدييات الأخرى. وتلعب الثعالب الطائرة دورا حيويا في عملية التكاثر النباتي، اذ تقوم بتلقيح أنواع لا حصر لها من النباتات خلال طيرانها من زهرة الى أخرى لامتصاص الرحيق كما انها تنثر البذور عن طريق عاداتها في الطعام، فهي تهضم الفاكهة وتطرد المواد الصلبة كالبذور خلال طيرانها في الجو. ومن بين أشجار الفاكهة المنتشرة في البراري والتي تعتمد في



تتغذى بعض أنواع الخفافيش على الفاكهة، وقد تلحق أضرارا جسيمة ببساتين الفاكهة، الا انها تأكل فقط الثمار الناضجة جدا والتي، في العادة، لا تصلح للتسويق.

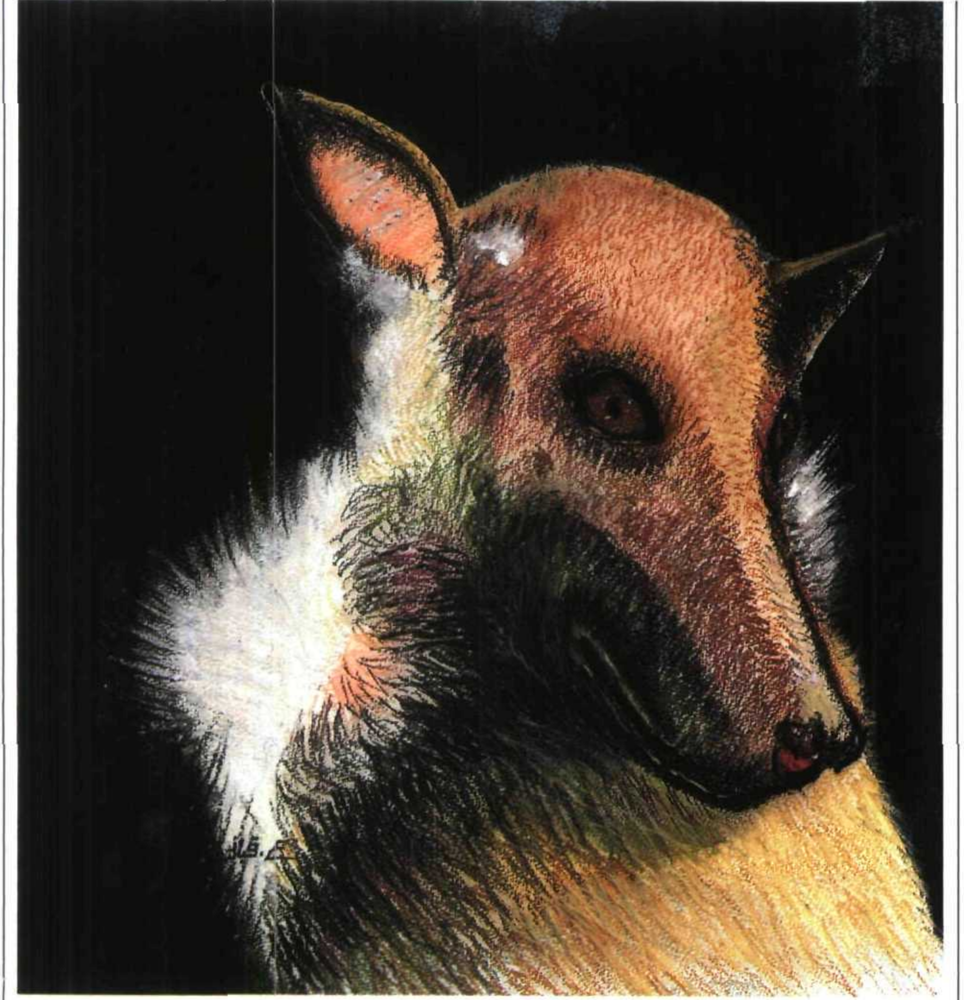


بعض أنواع الخفافيش المعرضة للانقراض وهي تكثر في معظم انحاء العالم حيث يهاجر بعضها طلبا للدفء كبعض انواع الطيور المهاجرة.

تكاثرها على الخفافيش، اشجار الموز، ولسان الحمل، والنخيل، ·وشجرة الخبز، والمانجا، والتين. وقد أظهرت الدراسات التي أجريت في مناطق معينة في غرب افريقيا، ان دور الخفافيش في تكاثر أنواع عديدة من الأشجار أمر حيوي بالنسبة لاعادة تحريج المناطق من الغابات التي تعرضت فيها الأشجار للاندثار وكذلك الأراضي الزراعية المهجورة، كما انها تفسح المجال امام عودة نماء الكثير من الأشجار ذات النفع الكبير.

لقد كشفت دراسات أجريت مؤخرا على الجهاز العصبي والمورفولوجي وهي علوم تبحث في أشكال الحيوانات والنباتات وبيئتها، عن أن الثعالب الطائرة ربما تكون هي الحيوانات الثديية الرئيسية التي أدت الى نماء الغابات. وعلى الرغم من هذه الفوائد الجمة، فان أنواعا عديدة منها والتي تربو على مائتي نوع، تواجه خطرا مزدوجا، خطر الاستهلاك البشري لها على اعتبار انها تشكل طبقا شهيا، وخطر الابادة لانها متهمة بالحاق اضرار جسيمة ببساتين الفاكهة. وقد بدأت بعض البلدان في شن حملات استئصال واسعة لها. وهناك بلدان أخرى قد تحذو حذوها في هذا الشأن. وتشير الاحصاءات الى أن نسبة انخفاض عدد الخفافيش قد بلغت أكثر من ٩٠ في المائة في استراليا وبلدان جنوب شرق آسيا وجنوب الباسيفيك. كما تشير المعلومات في هذا الخصوص الى أن هناك انواعا أخرى عديدة من الخفافيش تواجه خطر الانقراض حتى قبل أن يتم اعداد السجلات الخاصة بأوضاعها.

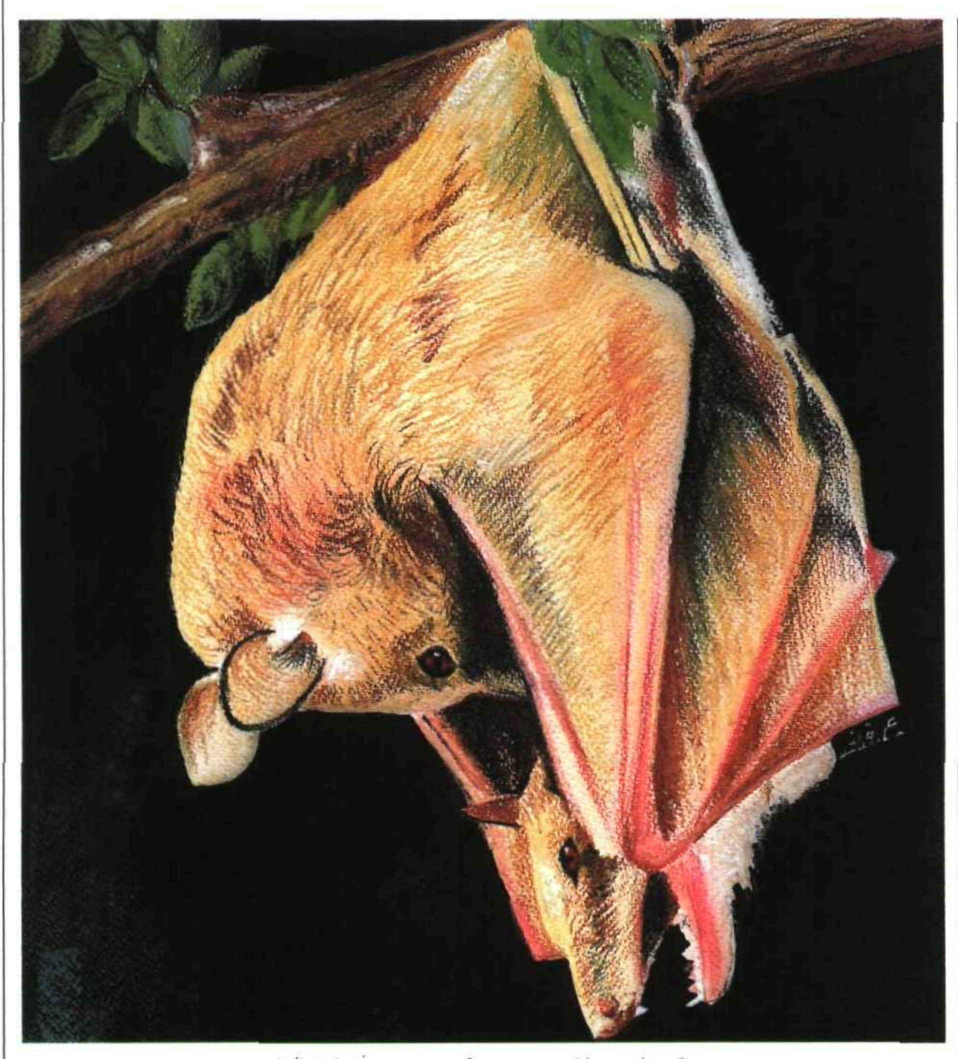
توجد جماعات الخفافيش بشكل عام في معظم المناطق، وخاصة ذات الأجواء الحارة والمعتدلة منها، وتتكاثر في القارة الافريقية، والمناطق الاستوائية



ثعلب طائر وقد أصاخ بسمعه ونفخ كتفيه المكسوتين بالفراء، ومنها اشتق الاسم الخفاش الاكتف، والذكور فقط هي التي يكسو الفراء اكتافها.



خفاش طائر يصدح بالغناء لجذب الاناث المحلقة في الفضاء خلال فترة التزاوج.

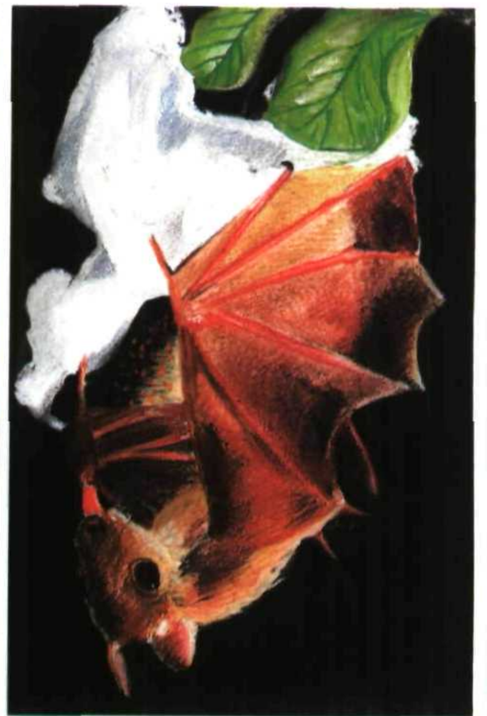


يحتضن ذكر الخفاش الانثى ويضمها تحت جناحيه في فترة التزاوج.

الأخرى حيث تشكل الغابات والاحراج والحرارة والرطوبة والعوامل البيئية والمناخية الأخرى البؤرة المناسبة لتأقلمها وتكاثرها.

من ناحية أخرى يقوم حاليا عدد من الباحثين المتخصصين في علم الحيوانات باجراء دراسات ميدانية مكثفة على هذه المخلوقات بهدف الكشف عن انماط حياتها والتعرف الى انواعها وطرق التعارف والانسجام بين مختلف اجناسها، ومعرفة مدى تأثيرها على البيئة التي تعيش فيها.

وقد أجرى د. «مارلين توتل»، رئيس الهيئة الدولية للمحافظة على الخفافيش في الولايات المتحدة، بحوثا علمية على أحد أنواع هذه الخفافيش وهو ما يعرف بـ«الخفاش الاكتف»، واطلق عليه هذا الاسم لأن كتفيه مرتفعتان وبراقتان كأكتاف العسكريين التي تزينها النجوم البراقة. وقد أجريت الدراسة هذه في احدى مدن كينيا القريبة من بحيرة فكتوريا في الشمال الافريقي، حيث كان احد هذه الخفافيش معلقا على شجرة قرب أحد أعمدة النور في أحد شوارع المدينة ليلا. وكان معلقا من رجليه نافخا صدره المكسو بالفرو وباسطا جناحيه، وكان يبعث اصواتا تشبه رنين الجرس على أمل اجتذاب احدى الاناث اليه ثم شد هذا المخلوق الرشيق بجناحيه اللذين يبلغ طولهما أكثر من ٥٠ سنتمترا انتباه الدكتور «توتل» الذي أمضى أسابيع طويلة يحاول العثور على خفاش من هذا النوع لالتقاط صور له في أوضاع مختلفة لاستكمال الأبحاث التي يقوم بها وخاصة عندما يكون طربا. وأخيرا حقق ضالته المنشودة.



يمتص الثعلب الطائر رحيق زهرة «البا او باب» فتعلق بجسمه اللقاحات التي يقوم بتوزيعها على الزهور الأخرى.

وبخلاف الكثير من أنواع الخفافيش، فان الخفاش الأكتف السالف الذكر يفتقر الى القدرة على تحديد الموقع عن طريق الموجات الصوتية، لذا تحتاج الاناث منه الى الضوء لرؤية الذكور وهي تؤدي حركاتها الاستعراضية لجذب الانتباه اليها خاصة خلال موسم التزاوج. وتهيء أعمدة النور المقامة في شوارع المدينة الفرصة لهذا النوع من الخفافيش للتعرف الى بعضها البعض أثناء فترة التزاوج.

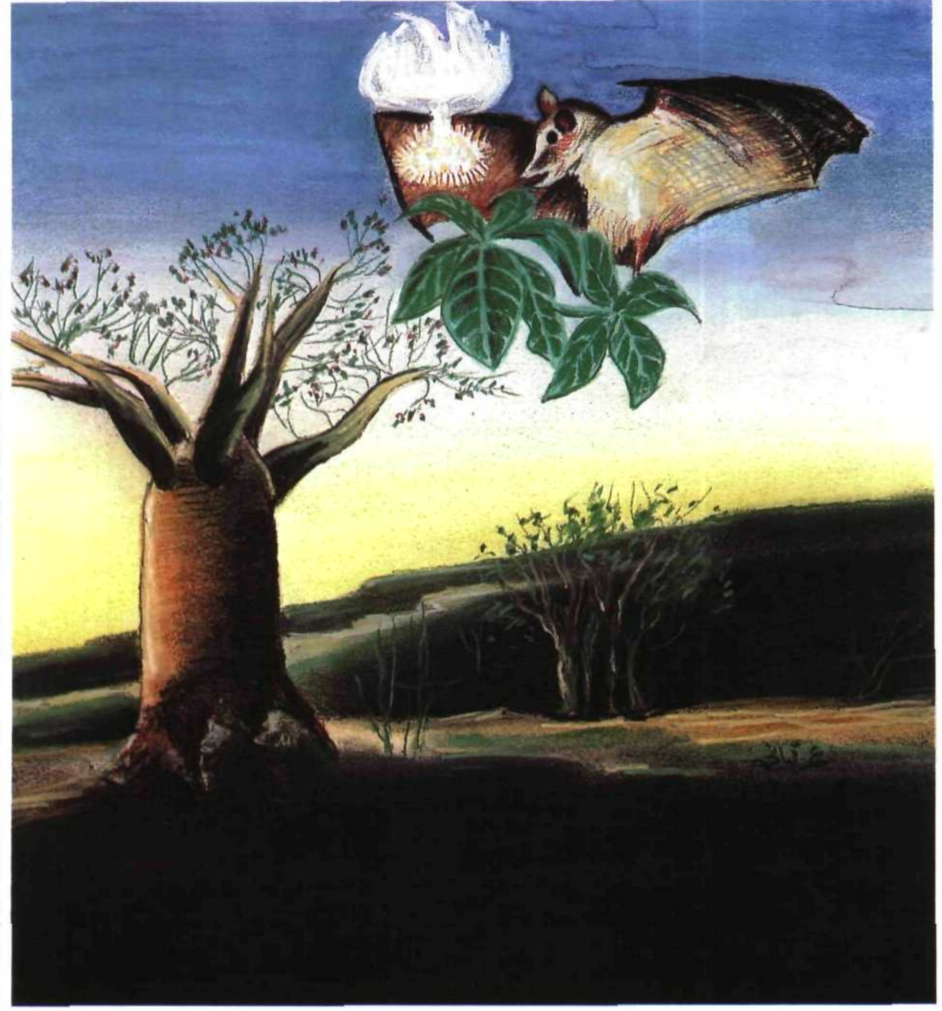
غير أن هذا النوع من الخفافيش لم يكن ضمن اهتمام الدكتور «توتل» خلال عام ١٩٨٢ ابان زيارته الأولى لافريقيا عندما عرف الصفات غير العادية التي يمتاز بها هذا النوع من الخفافيش، والذي يعتبر مع غيره من الثعالب الطائرة من أهم الحيوانات الثديية التي تستحق الدراسة والتمحيص في القارة الافريقية.

كان اللقاء الثاني مع هذه المخلوقات المثيرة للاهتمام خلال عام ١٩٨٤، وذلك أثناء القيام بدراسات عن الخفافيش آكلة الضفادع، في كينيا. وكان الدكتور «مايكل ريان»، وهو أحد العلماء المتخصصين في دراسة سلوك الضفادع لدى جامعة تكساس، يقوم بتسجيل نقيق الضفادع قرب بحيرة فكتوريا، حيث شاهد خفاشا اكتف على شجرة قريبة وهو يؤدي حركات استعراضية وعلى بعد بضعة أمتار منه فقط، كان هناك حيوان ثديي آخر يقوم بواحد من أروع الاستعراضات الغنائية حيث كان يصدح باستمرار ويصفق بنصف جناحيه ويرسل وميضا من فروه الأبيض. وباستثناء فترة التزاوج، فان هذا الفرو

يحلق الثعلب الطائر فوق الغابات بعد التهام الثمار، ويتخلص من البذور غير المهضومة وهو في الجو وينثرها فوق أرض الغابة مما يساعد في اعادة نموها.



يتعرف الخفاش الوليد الى مذاق الفاكهة عن طريق لعق فم أمه بهدف معرفة انواع الفاكهة الصالحة للأكل.



تعتمد اشجار «البا او باب» الضخمة على الخفافيش في عملية التلقيح. وتؤمن هذه الاشجار الافريقية المساندة والمأوى للحيوان والحشرات.

ينسحب الى داخل جرابات الخفاش الاكتف. ومن المعتقد أن الغدد الموجودة داخل جرابات الكتف تفرز رائحة مميزة، تساعد ضربات الجناحين والفرو الطويل على نشر هذه الرائحة لجلب انتباه الاناث اليه اثناء طيرانها في الجو.

وتمتاز ذكور الخفافيش بوجود بروز في الوجنة هي عبارة عن أكياس او قِرب تقوم مقام خزان للأصوات التي تطلقها هذه المخلوقات أثناء عملية المناجاة، وتسمع على بعد مائتي متر أو أكثر.

تحتاج الأبحاث العلمية، ولا شك، الى بذل الجهود المكثفة الرامية الى تحقيق الأهداف المرسومة لها. كما أن مراقبة ودراسة مثل هذه المخلوقات والوقوف على تصرفاتها وانماط حياتها ليس بالأمر الهين كما قد يتبادر الى الذهن. فالخفافيش مخلوقات تعيش حياتها في الظلام وتنشط في الليل وتركن الى السكينة في النهار. وقد حدا الاتجاه العلمي الذي سلكه الدكتور «توتل» الى اصطياد اعداد من هذه الخفافيش ومعايشتها في الأسر للوقوف على أنماط حياتها الاجتماعية والسلوكية اضافة الى دراسة الجدوى الاقتصادية التي تعود على الغابات من وجود هذه المخلوقات، وتحديد الأضرار التي تلحقها بالمزارع، وامكان التوفيق بين متطلبات وجودها لمصلحة البيئة وعدم الاضرار ببساتين الفاكهة التي يعتمد عليها عدد كبير من السكان في القارة الافريقية في تأمين حياتهم المعيشية.



تتغذى مجموعة من الثعالب الطائرة على ثمار الفاكهة حيث تلتهمها وتمتص عصارتها، ثم تتخلص من البذور وتلقي بها فوق الغابات خلال تحليقها في الفضاء.



رحلة طيران ليلية تصحب فيها احدى اناث الثعالب الطائرة وليدها.

ولقد أمضى د. «توتل» اشهرا مع الخفافيش، وكان يقضي الساعات الطوال لالتقاط صورة واحدة لها، الا ان محاولاته قد باءت بالفشل لأن الخفاش كان يرفض التصرف بحرية. ولعل مراقبته للخفافيش عن كثب قد مكنته من معرفة الكثير عن عاداتها وسلوكها. وتقضي الخفافيش سحابة نهارها وحيدة أو في جماعات صغيرة، في الأشجار، واحيانا في كهوف يتسرب النور الجيد الى مداخلها. وقد تضم الجماعة الواحدة منها ١٥٠ خفاشا او اكثر، وهي تقضي النهار معلقة في جذوع الأشجار متقاربة جدا من بعضها البعض. وعندما ينشب خلاف بينها، فانها تستخدم معاصمها في الضرب دون أن تلحق الأذى ببعضها البعض.

تلد انثى الخفاش مولودا واحدا أو اثنين في العام. وترتبط مواعيد الولادة في بعض المناطق حسب طول أو قصر موسم الأمطار، ولكن هناك مناطق أخرى تحدث الولادات فيها طول العام. وخلال النهار، تحتضن الأم صغيرها تحت جناحيها، ولا يرى الا حين يطل برأسه احيانا. وعندما يحل الظلام تحمل الامهات صغارها وتخرج بها بحثا عن الطعام، مع العلم ان بعض هذه الصغار، يزن حوالي ثلثي وزن الأم ولديه القدرة على الطيران. وقد يتنافس الرضيع مع أمه على الغذاء، واحيانا يلجأ هذا الصغير المتعلق بصدر أمه الى الرضاعة من ثديها وهي في طريق عودتها الى بيتها.

وتعتمد الخفافيش في طعامها على مجموعة متنوعة من الفاكهة والازهار. ونظرا لأنها تتمتع بحاسة شم قوية، فانها تستطيع أن تكتشف مصادر الطعام على مسافة ميل أو أكثر، لكن صغار الخفافيش تحتاج الى التكيف مع نوع الرائحة التي ينبغي عليها تتبعها. وكثيرا ما تحضر الامهات الطعام في افواهها حتى يقبل صغارها على استساغة النكهة المرغوبة.

وتعتبر الخفافيش وغيرها من الثعالب الطائرة بمثابة وباء بالنسبة لمزارع المانجا المنتشرة على امتداد ساحل « مومباسا » بكينيا. ولمكافحة هذا الوباء، جرى تدمير العديد من الكهوف التي تتخذها الخفافيش مساكن لها وذلك باغلاق مداخلها.

غير أنه اتضح من خلال دراسة اجريت على ١٥ مزرعة تنتشر فوق مساحة تبلغ ٢٥٠٠ كيلومتر مربع، ومن خلال فحص حوالي ٧٥٠٠ ثمرة من ثمار المانجا، ان القرود، وليس الخفافيش هي التي تقف وراء الدمار الذي يلحق بهذه المزارع. فالخفافيش من عاداتها، عدم الاقبال على ثمار المانجا الفجة.

وللوقوف على هذه الحقيقة، تم اصطياد أكثر من ثلاثين ثعلبا طائرا تنتمي الى ست فصائل من الخفافيش. ووضعت هذه الثعالب الطائرة في شبكة مساحتها ثلاثة أمتار مربعة. وتركت مدة ١٨ ساعة بلا طعام الا من بعض أنواع الفاكهة الموجودة في الاسواق المحلية والتي كان من بينها المانجا والافوكادو والباباي والموز والجوافه، وكانت هذه الفاكهة تحتاج الى أكثر من يومين حتى تنضج. وعلى الرغم من جوعها الشديد، فان الخفافيش قد رفضت أكل أي منها، الا انها اقبلت فقط على تناول الفاكهة الناضجة منها في الحال خلال التجارب الخمس التي اجريت عليها.

لقد أمكن اثبات نقطة هامة من خلال هذه التجارب وهي أن الفاكهة الناضجة جدا هي وحدها التي تجذب الخفافيش اليها. وعلى ضوء هذه النتائج، فقد تبين أن الخفافيش تؤدي خدمة للمزارع بنزع ثمار الفاكهة الناضجة جدا غير القابلة للأكل والتي لو بقيت على الشجرة لأصبحت غذاء ليرقات ذبابة فاكهة البحر المتوسط الرهيبة.

لقد أوضحت تلك الدراسات التي اجريت ان عمليات نثر البذور، والتلقيح التي تقوم بها الخفافيش والثعالب الطائرة الأخرى، انما هي عمليات حيوية بالنسبة للحفاظ على الغابات الاستوائية والاقتصاديات المعتمدة عليها. وفي غرب افريقيا على سبيل المثال، يقول الدكتور «دان توماس» استاذ علم الاحياء في جامعة «شيربروك» في كيوبيك: «ان الثعالب الطائرة، ولا سيما الخفاش الاكتف، تشكل عنصرا بالغ الحيوية بالنسبة لاعادة تكاثر الغابات،

والأراضي الزراعية المهجورة وكذلك المناطق التي اقتطعت منها الاخشاب».

ومن الخصائص الأخرى التي اكتشفها «دان توماس» في الخفافيش، ان الخفاش الاكتف يأكل أكثر من ضعفي وزنه في الليلة الواحدة، ويهضم هذه الوجبات في وقت لا يتعدى خمس عشرة دقيقة، ويتبرز خلال الطيران، ويسهم بحوالي ٩٥ في المائة من عملية نثر البذور من الجو بحيث يتلقى المتر المربع الواحد من الاراضي الجرداء مئات البذور في العام. ويضيف الدكتور «توماس»: ان عملية استمرار الخفافيش في نثر البذور يمكن أن تشكل عنصرا مساعدا في اعادة استصلاح مساحات شاسعة من الاراضي القاحلة.

وفي شرق افريقيا يقوم الخفاش الاكتف بعملية تلقيح شجرة «البا اوباب»، وهي شجرة استوائية ضخمة الجذع، وذات ازهار عريضة تتفتح بعد مغيب الشمس وتنغلق مع انبلاج صبح اليوم التالي، وتعتمد هذه الشجرة في تلقيحها على الخفافيش، وهي شجرة ضخمة تتخذ منها مجموعات من الطيور والحيوانات الأخرى، مأوى لها. كما تعتبر الثعالب الطائرة التي تعيش في الغابات المنتشرة في غرب افريقيا المخلوقات الوحيدة التي تنثر بذور شجرة «الاريكو»، التي يدر خشبها الملايين من الدولارات سنويا. ولعل أفضل انواع الخفافيش بالنسبة لاعادة نماء هذا النوع من الاشجار الثمينة هي الثعالب الطائرة ذات اللون الأصفر.



تنام الخفافيش في مجموعات متراصة وهي معلقة فوق جذوع الأشجار أو الكهوف مما يجعلها هدفا سهلا للصيادين.



احد الخفافيش يتغذى على ثمرة المانجا، وقد اثبتت الابحاث ان الخفافيش تقترب فقط من الفاكهة الشديدة النضوج والتي تعتبر عبئا على الشجرة.

ويتجمع هذا النوع من الثعالب الطائرة لعدة أشهر كل عام مشكلا مجموعات قد تصل الى نحو مليون خفاش، وهي تأوي فوق اغصان الاشجار حيث تقوم كل أم برعاية صغيرها الوحيد. وقد لا يتعدى عدد مجموعاتها في افريقيا اثنتي عشر مجموعة.

وخلاصة القول ان انواعا عديدة من الخفافيش قد انقرضت، وان ما تبقى منها حيا حتى الآن لا يعدو مجرد بقايا متفرقة. وتعتبر الثعالب الطائرة الموجودة في جزيرة «صاموان» والتي يزيد طول جناحي الواحد منها على متر، هي آخر أنواع الخفافيش النهارية في العالم. فهي تحلق في منتصف النهار أثناء الحرارة الشديدة، وتعد عنصرا مهما لتلقيح الازهار في الغابات التي تعتمد في نموها على مياه الأمطار. ولكن تصديرها الى «جوام» و«سيبان» للاستهلاك الغذائي قد عجل في اختفائها.

وقد أشار احد علماء الاحياء، مؤخرا، الى أن تلك الخفافيش التي تقوم بعملية لقاح اشجار «البا او باب» الضخمة تعد ركيزة اساسية بالنسبة للغابات. كما ان استئصال مثل هذه المخلوقات الملقحة، قد يؤدي الى حدوث سلسلة من الانقراضات المترابطة. ولذلك، فان خطورة هذا الأمر لا تكمن في انقراض الخفاش فحسب وانما في تقلص اعداد الخفافيش الى حد لم يعد عنده كافيا لحماية الحياة الحرجية في الغابات التي تعتمد في ديمومتها على هطول الامطار.

إن أهمية الدور الذي تقوم به الخفافيش في الحفاظ على بيئة حرجية سليمة ظلت مغفلة لمدة طويلة، حتى لدى بعض علماء البيولوجيا. واليوم بفضل الدراسات الميدانية المكثفة والتجارب العلمية الجارية على الخفافيش، أصبح من المؤمل أن تقود هذه الجهود الى اماطة اللثام عن الدور الحيوي الذي تلعبه هذه المخلوقات الثديية في المحافظة على البيئة الطبيعية للغابات وصيانتها. □

نوافذ صينية على العرب في العصور الوسطى

بقلم: د. نقولا زيادة / بيروت

لما تولى جستنيان عرش الامبراطورية البيزنطية (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) كانت شرانق الحرير قد اخذت تربى في جبال بلاد الشام وبعض مناطق آسية الصغرى وبلاد اليونان وايطالية. ذلك أن بيوض أو «بزر» الشرانق نقلت في مصوين من القصب افرغتا من محتوياتها ووضعت البيوض مكان ذلك. كان ذلك في اواسط القرن السادس للميلاد، ولم تلبث تربية الشرانق أن انتشرت، وأصبح الحرير ينتج في المنطقة. ولكن هذا الذي كان ينتج لم يكن كافيا لسد الحاجات المتزايدة لسكان غربي حوض المتوسط وأوروبة. فكان من الطبيعي أن يستمر استيراد الحرير خيوطا ونسيجا وقماشا من الصين. الا أن الطريق المباشر بين الصين وايران «كانت يومها تحت حكم الساسانيين» وبيزنطية، كان مضطربا، لذلك كان الحرير ينقل بحرا، في أكثر الحالات على الأقل. وكانت جزيرة سرنديب «سيلان او سري لانكا اليوم» هي السوق الرئيسية للحرير وغيره من المتاجر.

ولعله من حسن حظنا أن زار الهند في أيام جستنيان «كوزموس» الملقب بالرحالة الهندي. وقد وضع فيما بعد كتابا عن الجغرافية العامة «نشر حوالي سنة ٥٤٠م». وكان كوزموس قد أقام مدة في سرنديب لذلك تحدث بشيء من التفصيل عن الأجزاء التي زارها في سرنديب والهند. واما عن المناطق الشرقية النائية فما «سمعه» من التجار عنها. وخلاصة ما ورد عند هذا المؤلف هو أن الصين كانت ترسل الى سرنديب حريرها وخزفها المزخرف، كما كانت جزر الهند الشرقية «اندونيسيا» تزود تجار سرنديب بالتوابل. أما الأحجار الكريمة فكانت في غالبها هندية الأصل والطريق. هذه السلع كانت تنقل غربا على أيدي التجار العرب، الذين كانوا المشرفين على هذه التجارة. وكان هؤلاء التجار يحملون البخور العربي، والمر الافريقي،

والذبل، وقرن وحيد القرن، والعاج من افريقية، ودم الاخوين والعنبر من جزيرة سوقطرى الى سرنديب، فيعود به التجار الشرقيون الى الهند والصين وغيرهما.

والطريف في الأمر أن الحرير الصيني كان ينقل من سرنديب الى الخليج العربي ثم عن طريق دولة ساسان الى المشرق، فيما كانت التوابل والطيوب تنقل عن طريق البحر الأحمر «وطريق الحجاز البري» الى مصر وبلاد الشام. وقد حاول البيزنطيون أن ينقلوا تجارة الحرير عن طريقهم هذا لكنهم لم ينجحوا. ذلك لأن التجار ألفوا حمل الحرير بطريق معين لمدة طويلة.

وسع أن الصينيين كان لهم يومها وحتى قبل ذلك، هذه التجارة الواسعة، فلم يعرف عنهم انهم خرجوا الى هذا العالم الواسع للتعرف اليه. ونحسب أن اتساع بلادهم وتنوع سكانها وكثرة وارداتها ونتاجها الصناعي والزراعي كان فيه ما يكفيهم، كي لا نقول يقعدهم عن هذه الزيارات. لذلك عندما نقع على كتاب صيني فيه معلومات عن العالم الخارجي نعتبره نافذة يتطلع منها الصيني ليرى كيف يعيش الآخرون.

وقد وقع للباحثين كتاب يعود الى القرن التاسع للميلاد «الثالث للهجرة» تحدث فيه كاتبه عن بربرا «الصومال» في الشرق الافريقي. والذي ذكره هو ما بلغه من التجار والرحالين. «والكتاب، بهذه المناسبة، ظل مطمورا في الصين الى القرن السابع عشر.»

ويعود هذا الكتاب الى أيام أسرة تانغ «٦١٨ــ٩٠٧م» وهي فترة من فترات الازدهار في تاريخ الصين. وقد جاء في هذا الكتاب «الموضوع سنة ٨٦٣» عن بربرا قول الكاتب: «بلاد بربرا تقع في البحر الجنوبي الغربي... سكان هذه البلاد يعتمدون على اللحوم في غذائهم، ولا يأكلون الحبوب. ثيابهم قليلة وتكاد تغطي ما تحت الخاصرة فقط. ونساؤهم نظيفات وعفيفات.. وقد يقنصن ويبعن رقيقا، وأسعارهن مرتفعة. والبلاد تنتج العاج والعنبر. ولم يخضع السكان لأي عنصر أجنبي قط.» ويرى الباحثون أن الكاتب يقصد الصومال بأكمله لا منطقة بربرا فقط.

وثمة كتاب آخر يعود الى القرن الثالث عشر جاء فيه أن سكان تلك الجهات «أي الصومال» يعيشون في أربع مدن فقط، والباقي من السكان يعيشون في قرى صغيرة. ويشير اليهم على أنهم يعبدون السماء، أي أنهم مسلمون «ولسنا نحسب أن صينيا كان يمكنه أن يستعمل عبارة أخرى للتعبير عن عبادة الله». ويقول المؤلف ان البلاد بها الكثير من الابل والاغنام. وعندهم من السلع، العاج وقرن وحيد القرن. وتوجد النعامة في تلك الجهات، لكنها طائر بري.

أشرنا آنفا إلى عصر أسرة تانغ وقلنا ان الكتاب الأول وضع في أيامها. اما الكتاب الثاني فيعود الى عصر أسرة سونغ (٩٦٠ــ١٢٧٩م)، وهو العصر الثاني الذي عرفت الصين فيه الازدهار في العصور الوسطى. وحري بنا أن نتذكر بضعا من الحقائق المتعلقة بهاتين الفترتين.

- في عصر أسرة تانغ كانت الصين تسيطر سيطرة تكاد تكون تامة على الطرق البرية التي تصلها بالمشرق العربي الاسلامي عبر اواسط آسية. وكانت الثروة التي تحصل عليها كبيرة. وفي هذه الفترة كانت الصين تصدر، فضلا عن الحرير، الشاي والخزف الصيني والورق. وحري بالذكر أن أسرة تانغ كانت معاصرة للعباسيين الأوائل، الذين كانوا يستهلكون الكثير من هذه السلع.
- في عصر سونغ، افلتت التجارة البرية من أيدي أهل الصين، لكن توسع الصين التجاري البحري كان فيه تعويض عن تلك الخسارة. وقد بنى الصينيون أول أسطول بحري في هذه الفترة، فبعد أن كان لديهم احدى عشرة سفينة صار عندهم عشرون سفينة كبيرة، وزاد عدد بحارتهم من ثلاثة آلاف بحار الى اثنين وخمسين الفا من البحارة.

هذا الأمر بالذات مهم جدا بالنسبة الى النوافذ التي أطل منها الصينيون على العالم، دون أن يخرجوا اليه. ذلك بأن المدن، والموانىء الرئيسية التي كانت تستقبل التجار الاجانب، من عرب وغيرهم، وهي خانقو «كنتون» وهي الأقدم، وهانغ ــ تشو، ومنغ ــ تشو وتسوان ــ تشو، وهذه ورد اسمها زيتون. «وفي وقت لاحق أضيفت فوتشو أيضا». وهذه هي التي كانت تسمى الموانىء الرسمية، وكانت جميعها تقع في الجزء الجنوبي من البلاد.

وكان في كل من هذه مراقب للتجارة البحرية، ومكتبة كان يتلقى من التجار الاجانب بيانات عن البضائع التي جاءوا بها وعن تلك التي ينوون نقلها الى الخارج. ويتولى هذا المراقب الاشراف على دخول السفن الى الموانىء وخزن المتاجر وتحصيل الرسوم المتوجبة عليها. وكان مندوب السلطان في الميناء يختار من البضائع والسلع ما يلزم للبلاط، ويدفع ثمنها، وبعد ذلك يباع الباقي. والذي نعرفه من اشارات متعددة هو أن البلاط الملكي والبلاطات الأصغر منه كانت أفضل زبائن للسلع المستوردة من الخارج، وفي أكثرها كانت هذه بضائع استهلاكية.

من هذه المعلومات التي دونها المفتشون والمسؤولون في هذه المدن ــ الموانىء، تجمعت للبعض منهم مادة كانت كافية لالقاء الكثير من الضوء على التجار والمتاجرات من حيث الأنواع والأصناف وطرق التخزين وآداب المعاملة التجارية.

وقد وصلتنا ثلاث مدونات تعود الى أيام أسرة سونغ (٩٦٠ ــ ١٢٩٧م)، منها اثنتان عنيتا بالتجار الآتين من الشرق والجنوب والجوار بالنسبة لهذه المدن الواقعة في المناطق الجنوبية من الصين. أما المدونة الثالثة فهي التي جاءت فيها أخبار عن العرب والمسلمين وديارهم وتجاراتهم. وهذه وضعها تشاوجو ــ كوا وسماها تشو ــ فان ــ تشي، أي وصف الشعوب الاجنبية.

وقد طبع كتاب «جو ــ كوا» لأول مرة بالصينية سنة ١٨٠٥م. وفي سنة ١٩١١م

صدرت له ترجمة انكليزية طبعت في بطرسبورغ «لينينغراد اليوم». وقد قام بالعمل «فردرك هيرث» وزميله «و. و. روكهل»، مع ملاحظات وهوامش غنية جدا.

والباحثون متفقون على أن «جو — كوا» نقل بعض ما جاء في مدونته عن السابقين من الكتاب. ولكن المهم هو ان الرجل وضع كتابه بين سنتي ١٢٤٢ و١٢٥٨ «أي بين ٦٤١ — ٦٥٦ للهجرة». فهو يلخص هذه المعرفة الى ذلك الوقت.

فما الذي نجده عند «جو — كوا» عن العرب والمسلمين وديارهم وتجارتهم؟

قسم المؤلف كتابه الى قسمين جعل الأول منهما للاماكن والشعوب، وقصر القسم الثاني على المتاجر والبضائع وأصنافها وخصائصها ومنافعها وحتى أوجه استعمالها أحيانا.

وقد نالت بلاد العرب والاسلام حظا لا يستهان به من الكتاب «ست وثلاثون صفحة من أصل مئة وخمس وأربعين صفحة». وكان من الطبيعي، وقد جمع المؤلف مادته من رواية التجار والبحارة، أن يعتبر ديار العرب والاسلام واحدة. والكلمة التي يستعملها للدلالة على ذلك هي «تاشي». ويؤكد أن بلاد تاشي هذه تقع في الجهة الشمالية الغربية من الصين لكن البلدين «أو المنطقتين» غير متجاورين، اذ ان «تاشي» بعيدة. ويشير الى أن السفن تحتاج الى شهور كي تنتقل من الصين الى سرنديب ثم الى عُمان ومصر، فضلا عن المغرب.

وكان من الطبيعي أن تكون الصورة الجغرافية لتلك البلاد النائية عند «جو—كوا» مضطربة. فهو يذكر موانىء الخليج العربي وبحر العرب وشرق أفريقية «مثل البصرة سيراف والبحرين والشحر وصحار والصومال (بربرا) وزنجبار» كما يشير الى مكة المكرمة والموصل والمغرب العربي وصقلية. لكن نسبة المواقع الى بعضها البعض ليست واضحة أبدا، وحدود الأقطار مضطربة وأوصاف المناخ مضحكة أحيانا.

ومع أن الأحداث التاريخية التي يرويها فيها كثير من الضبابية فان جو — كوا يذكر أن النبي (ﷺ) ولد في مكة وان المسلمين يصلون خمس مرات يوميا وانهم يصومون ويحجون. ونحسب أن المؤلف حصل على هذه المعلومات الاساسية عن طريق التواتر والمشاهدة، اذ لا بد أنه راقب المسلمين يقومون بأداء الصلاة في تلك المدن. لكن عندما يتحدث عن عاصمة «تاشي» او حاكم تاشي فانه يخلط بين الأمكنة والناس، بحيث تكاد اوصافه تنطبق على أي ملك، كما يسميه. وعلى أية عاصمة أو حتى على أي قصر.

فاذا انتقل جو—كوا الى القسم الثاني من كتابه كان أدق وصفا وأوفى معلومات. ذلك أن السلع التي كانت تحمل الى الموانىء كانت تقع تحت عينيه لفحصها وتسجيلها وجمع الرسوم المترتبة عليها. وهو يفرق بين ما كان تجار الجزيرة العربية يحملونه من نتاج بلادهم وما كانوا يحملونه من الانحاء الأخرى. ولسنا نستطيع أن نورد جميع ما ذكره الكاتب ولكن يجدر بنا أن نذكر بضعة أمثلة لتوضيح وجهة نظره.

فالمادة الرئيسية التي كانت الجزيرة العربية تزود الصين بها هي اللبان «البخور من الصنف الممتاز». ويأتي بعد ذلك المر «وهو البخور العادي» وهذا كان يأتي من شرق أفريقية أيضا. وكان لؤلؤ البحرين مما يعنى الصينيون بشرائه واقتنائه ويفضلونه على اللؤلؤ الهندي. أما ما كان التجار ينقلونه من خارج الجزيرة، فأهمه العاج والعنبر وقرن وحيد القرن من أفريقية. والمرجان «الذي كان أجوده يحمل من الشواطىء المغربية». كما كان ثمة صنف أقل جودة يحمل من البحر الأحمر. والواقع أن المعلومات التجارية التي نعثر عليها عند «جو—كوا» مفيدة وطريفة.

في الفترة الممتدة من ١٣٦٨ الى ١٦٤٤م، كانت أسرة «منغ» هي الحاكمة في الصين. هذه الأسرة عنيت بالبحر أكثر من سابقاتها من الأسر التي حكمت البلاد. ذلك بأن قيامها اتفق زمنيا مع الفترة التي انحلت فيها امبراطورية المغول الكبرى، واضطربت الطرق التجارية البرية التي تصل الصين بالبحر المتوسط على نحو لم يعرف من قبل. فكان على التجار الصينيين أن يؤمنوا الحصول على السلع التي أَلِفَها أهل البلاد، وخاصة اغنياؤها وأمراؤها وبلاطاتها، من مصنوعات المناطق الغربية ونتاجها. وكان البحر هو السبيل. وليس من شك في أن تجربة الصين السابقة في ايام أسرة «سونغ» كانت مشجعة. ومن هنا نجد أن الامبراطور الثالث من أسرة «منغ»، واسمه «يونغ—لو»، يرسل سبع حملات بحرية بين سنتي ١٤٠٥ و١٤٣٣م. فما الذي حمله على ذلك؟

جاء في الحوليات الامبراطورية الرسمية أن الامبراطور أرسل هذه الحملات البحرية للبحث عن ابن أخيه الذي اختفى بعد حادث سياسي يبدو أن الشاب لعب فيه دورا لم يعجب الامبراطور. وقيل أن هذا الشاب غادر الصين الى مكان في الخارج، فكان لا بد من حملات عسكرية للبحث عنه.

ولكن مثل هذا الكلام، كما تقول جانيت مرسكي في كتابها عن الرحلات الصينية الكبرى، شفاف أكثر من اللازم. اذ ليس من الضروري ارسال حملات عسكرية مكونة من أعداد كبيرة من السفن التي زارت خمسا وثلاثين مدينة بحرية وبلدا من أجل البحث عن شاب، ولو أنه كان من الأسرة المالكة. خاصة وأن المعروف أن هذه السفن لم تقم بشن غارة على أي مكان لتخليص هذا الفتى.

هل كانت هذه الحملات ترسل من أجل ضمان التجارة وتأمين الطرق؟ هنا مجال للتساؤل. اذ أن النظرة الرسمية الملكية للتجارة كانت غريبة في الصين. التجارة كانت دون المستوى الاجتماعي — الديني للكبار، في المملكة، ولكن الكبار في المملكة، هم الذين كانوا يحبون الحصول على المتاجر الأجنبية. واذن فيجب أن توضع القضية بشكل يمكن هؤلاء الكبار في المملكة من الاتجار دون أن تمس مكانتهم الاجتماعية. من هنا نجد أن «البلاط» لم يكن يتاجر. كل ما كان يحدث هو أن التجار الأجانب، مهما كان مقامهم، كانوا يأتون الى الصين لتقديم «هدايا التبعية» للامبراطور «وكانت هذه الهدايا يدفع ثمنها غاليا». ويقبل الامبراطور هذه الهدايا تكرما

منه، ثم يسمح لهؤلاء التجار الاجانب ببيع ما تبقى عندهم.

ومن هنا نجد من قال، في أيام الامبراطور «يونغ ـــ لو»، أن هذه الحملات كان القصد منها حماية أهل البلاد التي قبل الامبراطور خضوعها له. ولكن الذي حدث هو أن هذه الحملات لم تستمر بعد سنة ١٤٣٣م. ويرى المؤرخ «ارنولد توينبي» أن الصين لم تجد حاجة الى الاستمرار في هذه الحملات لأنها لم تفد منها. فالبلاد كانت تكفي نفسها بنفسها، والسلع الاستهلاكية كانت تأتي دون الحاجة الى هذه الحملات البحرية الضخمة.

وقد يكون الأمر أن الامبراطور «يونغ ـــ لو» أصيب مؤقتا بالرغبة في اظهار العظمة. فلما تم له ذلك، تخلى عن البحر، وعاد يدافع عن بلاده برا في حدودها الشمالية الغربية. وهناك كان مصدر الخطر على الصين.

أما أمير البحر الذي قاد الحملات السبع فقد كان صينيا مسلما من ولاية «يونان». والذي نعرفه هو أن «تشنغ ـــ هو» أمير البحر، كان حريصا على تدوين أخبار كل حملة بالتفصيل، من حيث عدد السفن والرجال والأماكن التي وصلتها والترحاب الذي قوبلت به الحملة أو الازورار الذي أظهره بعض السكان نحو أي من هذه المحاولات. وكان يرفع تقاريره الرسمية هذه الى الامبراطور الذي كان يأمر بحفظها في المحفوظات الامبراطورية. لكن هذه التقارير فقدت جميعها. والباحثون في تاريخ الصين لا يرون مثل هذا الأمر غريبا. فقد كان حدوث مثل هذه الأمور للرجال الناجحين أمرا مألوفا معروفا. فالرجال الناجحون لم يكونوا يُعْدَمُون اعداء وخصوما منافسين لهم يقومون بطمر الأخبار أو إتلاف الأوراق. وفي حالة «تشنغ ـــ هو» اختار خصومه اتلاف الاوراق والتقارير.

لكن الرجل كان يعرف معاصريه ومنافسيه، وكان يدرك مدى ما قد يتعرض له على أيديهم. لذلك فقد لجأ الى نقش خلاصة لأخبار هذه الحملات على حجر ضخم اقامه في ميناء «تشانغ ـــ لو»، وهو الميناء الذي انطلقت منه الحملات السبع. فحصلنا على خلاصة للأخبار بدل امتلاك التفاصيل.

والحملات السبع يمكن تلخيص أخبارها على النحو التالي: الحملة الأولى (١٤٠٥ ـــ ١٤٠٧)، الى جزيرة سرنديب «سيلان». والثانية والثالثة (١٤٠٧ ـــ ١٤٠٩ و١٤٠٩ ـــ ١٤١١م) زارتا المناطق الواقعة بين الصين وسرنديب، ثم اتجهتا غربا الى الخليج العربي ووصلتا الى هرمز، التي كانت يومها أكبر موانىء الخليج وأغناها، ومركز الاتصال بين الابلة شمالا وما الى الشرق من موانىء. والحملة الرابعة، التي كانت صغيرة نسبيا، والتي زارت بعض الأماكن الصغرى على الطريق الى مدخل الخليج العربي بين سنتي (١٤١٣ و١٤١٥م)، كان فيها تراجمة وادلاء مسلمون. ولعل هذه الحملة كانت حملة تجار للتفاوض أصلا. أما الحملة الخامسة (١٤١٧ـــ ١٤١٩م) فقد وصلت عدن وميلندا. وهذه المدينة الأخيرة تقع على الشاطىء الأفريقي الشرقي، ومنها انطلق «فاسكو دي غاما» للوصول الى الهند بعد أقل من قرن من زيارة الحملة الصينية الخامسة لها. ويبدو أن وصول هذه الحملة الى الشاطىء الأفريقي شجعت الامبراطور على ارسال حملة أخرى الى تلك المناطق، فكان أن أرسل الامبراطور الحملة السادسة (١٤٢١ـــ١٤٢٢م) الى تلك الجهات فوصلت الى مقديشو. والمرجح لدينا أن المسؤولين أو العارفين ادركوا أهمية هرمز، اذ كانت هذه هدف زيارة قامت بها الحملة السابعة (١٤٣١ ـــ ١٤٣٣م).

كانت الحملات ضخمة ـــ فالحملة الأولى اشتركت فيها اثنتان وستون سفينة و٢٨٠٠٠ بحار، عدا نحو سبعة آلاف قدموا خدمات محلية في اعداد السفن والمؤن والأسلحة. صحيح أن الحملات الأخرى كانت أصغر عدد سفن وبحارة، لكن مع ذلك فان ارسال سبع حملات كان يتطلب إعداداً كبيراً. وكان الأمر، فوق ذلك، يقتضي نفقات كبيرة. ولكن السؤال الذي يواجهنا هو: ماذا كانت الفائدة من هذه المحاولات؟ وقبل هذا يخطر في البال سؤال آخر: ماذا كانت الغاية من هذه الحملات؟

أما السؤال الثاني فقد حاولنا الاجابة عنه قبلا. وأما السؤال الأول فالاجابة عنه هو أن الفائدة التي حصلنا عليها فعلا كانت قليلة. قليلة من حيث المعلومات التي كنا نحب أن تصلنا عن البلاد التي وصلتها هذه الحملات. صحيح أن أربعة من الضباط البحريين الذين عملوا مع أمير البحر المذكور قد كتبوا فيما بعد عن بعض انجازات هذه الحملات. وكان في الذي كتبوه بعض الفائدة. لكن ذلك كله كان متأخرا، اذ انه كتب بعد ما لا يقل عن عشر سنوات بعد انتهاء الحملات. فضلا عن أنه كان عن أمور شخصية أكثر منه عن البلاد التي زاروها.

وهذه الاطلالات التي مررنا بها لم تعط الصينيين الصورة الكاملة عن العالم الخارجي. كانت نوافذ، والنوافذ في أكثر حالاتها تعطيك جزءا من الصورة الأكبر. فكيف اذا كان الجو مشحونا بالغيوم والضباب، كما كانت نوافذ الكتاب الصينيين مثل «جو ـــ كوا»؟

كان الصيني، على ما يرى الذين درسوا تاريخ الصين وآدابها، يعتقد اعتقادا راسخا في أمرين هامين بالنسبة له وهما: أن بلاده ظلت خلال تاريخها الطويل وحدة لم تتجزأ، ولو أنها عرفت فترات كانت فيها مقسمة. والتاريخ الصيني يؤيد هذا الاعتقاد. والأمر الثاني، هو أن الصين هي العالم اصلا، وكل ما حولها يدور في فلكها. وهذا، في رأينا، ناجم عن اتساع رقعة البلاد، وكثرة سكانها، وتنوع غلاتها وصناعاتها.

ولذلك فان حكام الصين، عندما يُعْدَمُون عدوا يخاصمونه، قد يخطر في بالهم أن يعظموا في عيون أنفسهم. فيقودون الجحافل أو يعدون السفن الضخمة ويخرجون بها الى حيث يحسون بأنهم أرضوا نفوسهم وحققوا صورة العظمة، ثم يعودون الى بلدهم ومدنهم وقصورهم وآدابهم وعلومهم. وفي هذه، كان الكهنة والرهبان والعلماء حتى كبار الموظفين يجدون المتعة الحقيقية. وهكذا تكوَّن هذا الشعور عندهم نتيجة هذا التمازج بين الفعل والصورة والتدوين والعودة الى الماضي □

أخبار الزيت المحلية

تشغيل وحدة جديدة للزيت الخام في معمل التكرير برأس تنورة

أضيف مؤخرا الى معمل التكرير برأس تنورة وحدة جديدة هي وحدة الزيت الخام وتبلغ طاقتها ٢٥٠٠٠٠ برميل في اليوم، وقد بدأ تشغيلها في شهر سبتمبر الماضي، وهذه الوحدة هي جزء من مشروع ضخم الهدف منه تحديث وتطوير معمل التكرير برأس تنورة. وهي تضم أجهزة مرحلية للتقطير الجوي والفراغي ووحدة لتركيز النفثا. وتشمل منتجاتها النفتا والكيروسين وزيت الديزل الخفيف والثقيل، وزيت الوقود ومخلفات التقطير الفراغي، وتستخدم هذه الأخيرة لإعداد الاسفلت في المعمل. وترتبط الوحدة الجديدة بمعمل التكرير بواسطة نظام التوزيع عن طريق التحكم في أجهزة الحقل بالكمبيوتر، والذي يعتبر بدوره جزءا من برنامج تحديث معمل التكرير. ويسمح هذا النظام الجديد بمراقبة وضبط جميع أقسام معامل التكرير من خلال ثلاثة أجهزة مراقبة موجودة في غرفة المراقبة المركزية والتي جميع العاملين فيها من السعوديين. ويعمل في وحدة الزيت الخام الجديدة ستة موظفين فقط في كل نوبة عمل، وهي نصف طاقة العمل المطلوبة لادارة وتشغيل المرافق القديمة التي حلت محلها. وقد تحدث السيد صالح العجم، ناظر المشروع، عن المعمل الجديد رقم ١٥ حيث قال: «انه احدث واهم المشاريع التي تم انجازها في معمل التكرير برأس تنورة حتى الآن». وقد بدأت أعمال الانشاءات فيه في اواخر عام ١٩٨٤. وقد انتهت من الناحية الميكانيكية في ٢٠ اغسطس الماضي، أي قبل



عمودا التقطير الجوي والفراغي ومداخن الأفران الأربعة هي من المعالم البارزة للمعمل رقم ــ ١٥ الجديد من معمل التكرير برأس تنورة.



رئيس الشركة، الأستاذ علي ابراهيم النعيمي، يستمع الى شرح من مدير عام معمل التكرير برأس تنورة، الاستاذ سعد الشعيفان خلال جولة قام بها لوحدة الزيت الخام الجديدة التي انجزت مؤخرا. وقد رافقه في هذه الجولة كل من صالح العجم ناظر مشروع تطوير معمل التكرير، والاستاذ حمد الجريفاني نائب الرئيس لشؤون التصنيع في المنطقة الشمالية، ومبارك الشليل ناظر قسم صيانة معمل التكرير، وعبدالله يعيش ناظر مشروع تطوير معمل التكرير المساعد.

شهر من الموعد المحدد لانجازها، حسب قول مدير الانشاءات السيد سعد الدوسري.

استخدم في بناء المرفق الجديد المعدات الفائضة عن حاجة ارامكو كلما كان ذلك ممكنا، مما نتج عنه وفر في تكاليف المشروع، كما يقول السيد الدوسري. واشتملت المواد الفائضة هذه على أوعية المعالجة وجنيحات تبريد الهواء، ومضخات التصنيع، والأنابيب والكابلات الكهربائية. وقد اكمل المقاولون ٣,٥ مليون ساعة عمل دون وقوع اية اصابة مقعدة عن العمل.

وقد قام رئيس الشركة، الاستاذ علي ابراهيم النعيمي، بتقديم جائزة السلامة تقديرا لهذا الانجاز، وتجول في وحدة الزيت الخام الجديدة، يرافقه كبار المسؤولين عن التصنيع في المنطقة الشمالية.

ويتميز المعمل رقم ــ ١٥ ببرجي التقطير الجوي والتقطير الفراغي العملاقين، وبممرات الأنابيب الفسيحة المنسقة، التي تسمح بالوصول بسهولة الى المعدات من أجل الصيانة مقارنة بالمرافق القديمة التي كان يغص بها المعمل رقم ــ ١٥. وقال السيد ناظم النصر، كبير مهندسي المشروع «ان اقامة عمودي التركيز الضخمين في مكانيهما كان، ولا شك، واحدا من ابرز أعمال الانشاء في وحدة الزيت الخام الجديدة».

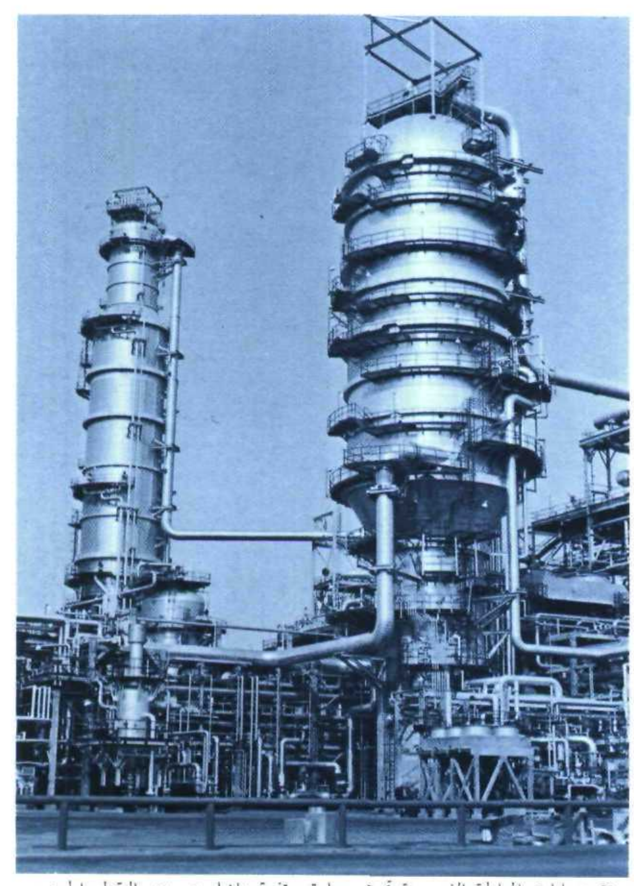
جولة في ارامكو

ويبلغ طول عمود تركيز التقطير الجوي٧٧,٩ مترا، أي ارتفاع مبنى مكون من ٢٥ طابقا. ويزن ٦٩٠ طنا متريا. ويبلغ وزن عمود التقطير الفراغي ٧١٩ طنا متريا وارتفاعه ٥٦,٣ مترا. وقد استغرق تركيب كل من العمودين ست ساعات من العمل الفني، بينما استغرق الإعداد لانجاز اقامة العمود الواحد اسبوعين، حسب قول السيد نصر. وقد أقيمت وحدة الغاز الجديدة على مساحة تقدر بحوالي ٥٤٤٥٠ مترا مربعا، وهي بذلك تحل محل اربع وحدات للزيت، هي أقدم الوحدات التي انشئت منذ ٤٥ عاما. وينضم المعمل الجديد الى معمل آخر في معمل التكرير طاقته ٢٥٠٠٠٠ برميل من الزيت الخام يوميا. وقد تحدث السيد العجم عن ذلك بقوله: «عندما نغلق المرافق القديمة فسيكون لدينا وحدتان للزيت الخام تبلغ طاقتها الاجمالية ٥٠٠٠٠٠ برميل في اليوم، بدلا من خمس وحدات طاقتها الاجمالية ٤٥٠٠٠٠ برميل في اليوم».

تمتاز الوحدة الجديدة بقدرة فائقة بالنسبة للمحافظة على الطاقة، وفي أعمال الصيانة، وكذلك بالنسبة للأمور المتعلقة بالسلامة مقارنة بالوحدة التي حلت محلها. وعلى سبيل المثال، فهي تستخدم الحرارة التي تتولد بفعل عملية التقطير، في تسخين الزيت الخام الداخل الى المبدلات الحرارية بشكل أفضل وارخص كلفة من الاعتماد الكلي على احتراق الوقود لتسخين الزيت الخام من درجة الحرارة المحيطة به الى الدرجات الحرارية اللازمة للتقطير.

ويرد الزيت الخام الى الوحدة الجديدة من ساحة الخزانات برأس تنورة. ويضخ عبر مجموعة من المبدلات الحرارية حتى يصل الى درجة حرارية مناسبة تسمح بازالة الاملاح داخل جهاز «الكتروستاتي — Electrostatic » لازالة الملوحة من الزيت.

تمتزج متخلفات التقطير الجوي الحارة الواردة من وحدة اعادة التقطير في الوحدة المماثلة، بالزيت الخام المتدفق من وحدة الزيت الموجودة في المعمل رقم—١٥، ومن ثم يجري تقطير الخليط، حيث ينجم عن ذلك تبخر جزئي يتم في وعاء التبخر السريع. ويدفع البخار مباشرة الى عمود التقطير الجوي، ويرسل السائل عبر المبدلات الحرارية، ويسخن في أفران التقطير الجوي الى درجة ٣٧٠ مئوية، ويدفع بعدها الى البرج الجوي. وتتكثف المنتجات، وهي النفتا والكيروسين وزيت الديزل الخفيف داخل البرج الجوي. وتضخ النفتا الى عمود للتركيز، بينما يجري تبريد الكيروسين والديزل، وهما من المنتجات الجانبية، عن طريق مبدل حراري مع الزيت الخام. ثم تبرد هذه المنتجات بواسطة جنيحات التبريد قبل أن يدفع الى أوعية التخزين، أو الشلال المتدفق للمعالجة، كما تضخ المتخلفات من عمود التقطير الجوي عبر أفران الامتصاص حيث يجري تسخينها الى ٤٠٣ درجات مئوية، ثم تقطر داخل عمود التقطير الفراغي. ويسمح الضغط المنخفض داخل العمود باستخراج المزيد من المنتجات مثل زيت الديزل الخفيف والثقيل، وزيت الوقود عن طريق التقطير. وتستخدم المتخلفات المتبقية في انتاج الاسفلت. وقد صمم قسم نفخ الاسفلت بالهواء التابع للمرفق، لتصنيع الاسفلت المخصص لرصف الطرق، والاسفلت المخفف، والاسفلت الخاص بالسطوح. وتنتج وحدة الزيت الخام الجديدة حوالي ٢٠ في المائة من طاقتها من النفتا، و١٤ الى ١٥ في المائة من الكيروسين، و١٨ الى ٢٠ في المائة من الديزل الخفيف، و١٠ في المائة من الديزل الثقيل، و٤٠ في المائة من زيت الوقود والمتخلفات □



تتم عمليات المعالجة الضرورية تحت حرارة مرتفعة داخل عمودي التقطير الجوي والفراغي العملاقين في وحدة الزيت الخام الجديدة.

قصـــة قصـــيرة

الطفل الضال

تأليف الكاتب الهندي: مالك راج أناند

ترجمة: حسني محمّد بدوي / القاهرة



بدأ مهرجان الربيع، وخرج الناس من خلال الظلال الشتوية، الى الأزقة والدروب الضيقة. خرجوا بفرح غامر في حشود كثيفة وكأنهم أفواج من الارانب تنطلق من حظائرها لتقذف بأجسامها في غمار بحر فضي يتلألأ تحت شعاع الشمس. خرج الناس في عجلة خارج بوابات المدينة حيث يقام معرض المهرجان. وفي غمار هذا الزحام انطلق صبي صغير، وجرى بين أرجل والديه، وقلبه مترع بحب الحياة والضحك تماما كهذا الصباح الباسم الذي يملأ الدنيا بالمرح والبهجة والزهور والأغاني. وكان الصبي يتلكأ في خطاه خلف أبويه اللذين اخذا يناديان عليه «تعال.. تعال !». ولكنه كان مأخوذا بتلك اللعب المعروضة في واجهات المحال واتجه مسرعا نحوهما، ملبيا نداءهما، متتبعا خطاهما، ولكنه لم يستطع أن يرفع عينيه عن اللعب، ولا أن يكبح جماح رغبات نفسه وامنيات قلبه، رغم انه يعرف ما يستكن في نظرات والديه الباردة من عدم اكتراث ورفض وفتور. قال لهما متوسلا: «انني أريد هذه اللعبة».

فنظر اليه ابوه نظرته الغاشمة. اما أمه التي اذاب الربيع روحها الرقيقة فقد مدت اليه اناملها لتمسك به. ان الضيق المضني الذي استبد بصدر الصبي — بسبب عدم تحقيق رغبته — قد خفف من وطأته انفجاره في البكاء: «ماما.. ماما..».

وذلك عندما ملأ عينيه المتلهفتين مشهد اللعب في المحال. وغادروا الطريق المغبر وانعطفوا في سيرهم، ودخلوا في ممرات احد الحقول المستوية الممتدة على مرمى أميال وأميال بجانب نهر مضيء بأنوار ذهبية، ينتهي هناك في الأقاصي بسراب. وفي الجانب الآخر تقوم عدة بيوت مبنية جدرانها من الطين، تسير بجوارها حشود من الناس، يرتدون ملابس صفر، ويلغطون بأصوات صافرة زاعقة، أصوات ضجيجهم وعجيجهم — أثناء عبورهم تلك الأحراش الصغيرة.

وتطلع الصبي الصغير الى أبيه وأمه، بجذل ودهشة، الى كل هذا البهاء الرائع الذي غمر الناس هنا في تلك الساحة، حيث يسيرون في تبختر ومرح. وكانت خطواته متوافقة مع نسمات الهواء النقية ذات الأريج المتضوع، والمنبعثة من تلك الحقول البعيدة. ورأى الصبي مجموعة من اليعاسيب تهفهف باجنحتها الارجوانية وتطن وتعترض مسار نحلة سوداء وحيدة او فراشة تبحث عن الرحيق في قلوب الأزهار. واجتذب مشهدها انتباه الصبي، فرنا اليها وتابعها وهي تتطاير في الهواء يحدوه الأمل في أن تكف احدى الفراشات عن الخفقان بجناحيها وتحط فوق زهرة، فيمسك بها. لكنه كلما حاول ذلك، وجدها ترفرف وتحلق في الهواء. وزاغت من حصاره نحلة سوداء كانت تنشد اغراءه بطنينها حول اذنه. وما ان جثمت على شفتيه، حتى تناهى الى سمعه نداء امه محذرا:

— تعال.. تعال يا ولدي. اخرج الى الممشى هنا.

واتجه صوب والديه فرحا، ومشى بجانبهما لحظة، ثم تخلف عنهما في السير وقد جذبته حشرات صغيرة أخرى، تتطاير فوق الممشى، رآها تخرج بوفرة من جحورها لتستمتع بحرارة الشمس ودفئها. ونادى عليه والده من وراء غيضة: تعال هنا. وجرى نحوهما، فوجدهما قد جلسا تحت شجرة تين بسطت فروعها كأذرع قوية فوق بعض النباتات الهندية الزاهرة الناضرة، ورأى ظلالها ملقاة على احواض ثمرات القثاء الذهبية، كما رأى عجوزا تنشر طرف جلبابها فوق الثمرات الصغيرة منها.

ان الازهار الجميلة تتورد في خجل، في سخاء تحت الشمس، ويمتزج شذا طلعها بالنسمات الناعمة الرطبة والنفحات الشاردة السائحة الى العُلى وتساقطت زخة من الزهور فوق رأس الصبي، على حين كان يدلف داخل برج حمام.. وهنا نسي والديه، وبدأ يجمع بين راحتيه وريقات التويجة. يا الهي ! سمع هديل الحمام، فلم يملك نفسه، فهرع نحو والديه صائحا: «الحمام ! الحمام !». وتساقطت الوريقات من بين يديه سهوا. وبدت نظرات الاستطلاع في عيون والديه، اللذين ناديا عليه: «تعال هنا..». وغادروا شجرة التين، واخذوا طريقهم نحو معرض المهرجان. وهناك رأى وسط الزحام بائعا متجولا يصيح: «جلاب جامان.. راسجيولا.. جليبي». كان البائع واقفا في ركن من مدخل المعرض حيث يتجمع حشد من الناس أمام كوخ دفع رسوم الدخول.. وحدج الصبي المشهد ببصره، في يقظة ودهشة وقد سال لعابه لمرأى حلوى «البارفي» — وهي الحلوى المفضلة لديه، وغمغم:

— انني أريد شيئا من حلوى «البارفي»...
وكان يعلم أن ابويه لن يكترثا لمطلبه هذا، فلم ينتظر منهما ردا، فتحرك وسار خلفهما. ورأى بائع الورود ينادي: «عقود الورد. عقود الورد». وبدا الصبي متحيرا وقد داعبت انفه الروائح الطيبة، التي كانت تتطاير على اجنحة النسمات الواهنة. واتجه نحو سلة مكتظة بالورود، وحدث نفسه مغمغما:
— انني اريد شيئا من هذه الورود..
ولكنه يعلم أن والديه سيرفضان شراءها له بحجة انها رديئة ولا قيمة لها. ولذلك مضى في سبيله دون أن ينتظر منهما جوابا.. ورأى رجلا يمسك بقائم خشبي معلق بطرفه مجموعة من البالونات الصفر والحمر والخضر والارجوانية، تتطاير في الهواء. كان الصبي مأخوذا بمشهدها البهي ذي الالوان الحريرية الناعمة، واستغرقته رغبته في اقتنائها كلها. لكنه يعلم جيدا أن والديه يرفضان شراءها له بحجة أنه أصبح أكبر سنا من اللهو بمثل هذه اللعب. لذلك مضى في سبيله صامتا. وهناك رأى أيضا ارجوحة تتطاوح مقاعدها في الهواء ويجلس فوقها رجال ونساء وأطفال، وتدور بهم، فرحين مرحين، وكأن دوارا قد أصابهم. وراقبهم الصبي، والارجوحة تطوح بهم ذات اليمين وذات اليسار، وقد تبسم وجهه المتورد. وكانت عيناه تتجهان مع حركات الارجوحة هنا وهناك. وانفرجت شفتاه في حيرة حتى شعر وكأنه يطير معهم في الهواء. وفي البدء أحس الصبي بعنف حركات الارجوحة لفرط سرعتها، لكنه ما لبث أن شعر بأنها أقل سرعة، وبأنه مستغرق في الطرب والتدله. ودس اصبعه في فمه دهشا، وظل هكذا حتى توقفت الارجوحة. ومع أنه يعلم أيضا أن والديه يرفضان دائما تلبية رغباته الا انه تجاسر هذه المرة وقال لهما: ابتاه، اماه.. انني أريد أن اركب تلك الارجوحة. ولكنه لم يلق منهما جوابا، فعاد ينظر اليهما. ومع ذلك لم يكترثا به وسارا امامه. وعاد لينظر الى مشهد الارجوحة ثم تحول ببصره الى حيث كان يقف والداه، فلم يجدهما، نظر خلفه فلم يجدهما. لم يجد أثرا لهما، فاطلق صرخة عميقة من حلقه الجاف. وفجأة، انتفض بدنه الصغير. وغادر المكان الذي كان يقف فيه، هارعا باكيا، وقد استبد به خوف عارم: «يا اماه.. يا ابتاه!». وفاضت عيناه بدموع غزيرة مستوحشة، وتورد وجهه وارتعش بدنه من فرط الخوف. وجرى مذعورا منخلع القلب، هنا وهناك في كل الاتجاهات، ولا يدري الى أين يذهب. وراح يولول باكيا: «يا اماه.. يا ابتاه». لكن بكاءه هذه المرة كان اغزر دموعا وأشد حرقة. وتبلل حلقه بلعابه، وتسيبت عمامته التي كانت محكمة الربط، وتبللت ايضا ملابسه بالعرق الذي امتزج بالتراب والطين. وبدا جسمه الصغير ثقيلا ككتلة من الرصاص. وظل يجري مهرولا، منهوك القوى، ثم توقف لحظة وقد استبد به الشعور بالهوان والهزيمة، واستحال بكاؤه نهنهة وتأوهات. ولمح من خلال غشاوة عينيه رجالا ونساء يتحدثون فوق رقعة من العشب الأخضر. حاول أن ينظر بتركيز وسط ملابس الناس الصفر الزاهية، الا انه لم يجد أثرا لأبويه. كان الناس يتكلمون ويضحكون لمجرد الكلام والضحك، وجرى مرة أخرى بحماس، وقذف بنفسه في خضم زحامهم. سعى بين أرجلهم منهنهاً مغمغما: «اماه.. ابتاه». واقترب من مدخل المعبد، حيث كان الزحام أشد، والناس يتدافعون بالمناكب، رجال لهم أجسام ثقيلة وعيون بارقة، واكتاف عريضة عالية. وحاول الصبي أن يشق طريقه من خلال ثغرة بين أقدامهم ذات المخالب الوحشية التي كان يمكن ان تدوسه وتطحنه، وظل بينهما يزعق بصوت عال «أبي.. أبي!». وسمع صوته رجل وسط الزحام الصاخب المائج، سمع أنينه، فطأطأ رأسه في مشقة والتقط الصبي ورفعه من ذراعه وسأله وهو يبعد به عن كتلة الزحام: «ما الذي جاء بك الى هنا يا ولدي؟ ابن من انت؟». فانفجر الصبي في بكاء مرير قائلا: «أريد امي.. أريد أبي».
وحاول الرجل أن يهدىء من روعه ويرضيه، فصحبه الى الارجوحة وسأله بلطف وهو يقترب به من الحلبة:
— الا تريد أن تركب الارجوحة؟ فصاح الصبي قائلا وهو ما يزال يبكي بكاءه الحار المرير:
— اريد امي.. أريد أبي. فاتجه الرجل به نحو حلقة الساحر الذي كان ما يزال ينفخ في مزماره للأفعى الراقصة. وهناك قال للصبي:
— اسمع هذه الالحان الجميلة يا ولدي.
لكن الصبي سد اذنيه باصابعه، وصاح بأعلى صوته:
— أريد أمي.. أريد أبي.
وصحبه الرجل الى حيث كان يقف بائع البالونات، ظنا منه أن الوانها الزاهية قد تجذب اليها اهتمام الصبي فتهدئه. وقال له محاولا استمالته:
— الا تحب أن اشتري لك بالونا ملونا؟
فأشاح بوجهه بعيدا عن البالونات الطائرة، وهو ما يزال يبكي ويقول:
— أريد أمي.. أريد أبي.
وكان الرجل كريما، ملحاحا في كرمه، فأراد أن يرضي الصبي ويفرحه، حمله الى حيث يقف بائع الورود بالقرب من البوابة، وقال له:
— انظر يا ولدي! أتشم رائحة هذه الورود الجميلة؟ الا تريد عقدا من ورد «الجارلاند» لتضعه حول عنقك؟. فأبعد الصبي أنفه عن سلة الورد، وعاود بكاءه صائحا كارهاً:
— اريد امي.. أريد أبي.
ورأى الرجل أن يدخل روح المرح في قلب الصبي الكسير بشراء هدية من الحلوى له، فصحبه الى محل بائع الحلوى وسأله:
— أي نوع من انواع الحلوى تحب ان اشتريه لك يا ولدي؟
فأشاح الصبي بوجهه بعيدا عن محل بائع الحلوى، وظل ينتحب ويقول:
— أريد امي.. أريد أبي! □

أدباء من المملكة العربية السعودية :

طاهر زمخشري.. شاعر الألم والأمل

بقلم : د. مصطفى ابراهيم حسين / الرياض

هو طاهر عبدالرحمن محمد زمخشري، احد رواد حركة التجديد في الشعر السعودي المعاصر. ولد عام ١٣٣٢هـ بمكة المكرمة، وتخرج في مدارس الفلاح التي أنشأها الراحل محمد علي زينل رضا، عام ١٣٣٢هـ، لتؤدي دورا كبيرا في النهضة الأدبية والثقافية في البلاد، ويكفي أن يكون من بين المتخرجين في مدارس الفلاح — عدا زمخشري — محمد حسن عواد، وحمزة شحاته، ومحمد حسن فقي، وعبدالله عريف، وحسن عبدالله القرشي، ومحمد سعيد العامودي، وحسن كتبي، وحسين سرحان، ومحمد عمر عرب، واحمد الغزاوي، ومحسن باروم وسواهم كثير.

وقد شغل زمخشري، بعد تخرجه، عديدا من الوظائف الادارية ثم انتقل الى «مديرية الاذاعة»، وهي اذاعة المملكة العربية السعودية، كما تسمى الآن، وكان عمله ذاك في عام ١٣٦٩هـ. وفي الاذاعة، عمل طاهر زمخشري مراقبا عاما للبرامج، ومذيعا، ومقدما للعديد من برامجها الناجحة، والتي كان من ابرزها برنامجه الشهير للأطفال «بابا طاهر»، والذي لقي نجاحا كبيرا بفضل ما كان يتمتع به طاهر زمخشري من نزوع انساني دافق بالحب والنبل لعالم الصغار، ولعالم الأسرة على حد سواء، وهو ما ينعكس على جانب من جوانب ابداعه الشعري. ومما لا شك فيه أن عمل زمخشري بالاذاعة كان له تأثير كبير في تنمية حواسّه الفنية والذهنية، بما يحيط بهذا المنبر الاعلامي الهام من أجواء الفن والثقافة والفكر. وقد مارس خلال عمله ذاك فن كتابة الاغنية، واكتشف مواهب فنية.

وكما ارتاد زمخشري طريق الاذاعة، فكذلك ارتاد طريق الصحافة، وعني بالطفل، فخصه ببرنامج اذاعي، وكذلك كانت عنايته به، حين أصدر للأطفال مجلة «الروضة» التي والت صدورها خلال الاعوام من ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م الى ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

وقد نال طاهر زمخشري العديد من الجوائز في مسابقات أدبية عامة، كما حاز أوسمة مختلفة لقاء تميزه ونشاطه الأدبي، وكان آخر ما حازه «جائزة الدولة التقديرية في الأدب» لعام ١٤٠٤هـ.

دواوينه — نظرة عامة: أصدر طاهر زمخشري ثمانية عشر ديوانا شعريا، كان اولها ديوانه «أحلام الربيع» الذي أصدره عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م، وآخرها ديوانه «عبير الذكريات» الذي أصدره عام ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م، وقد ضم الشاعر دواوينه في مجموعتين اثنتين، هما: «مجموعة النيل» عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، و«مجموعة الخضراء» عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

أما الديوان الأول «أحلام الربيع»، فقد أهداه الى الراحل محمد حسين هيكل، وقدم له الأديب المصري حسن كامل الصيرفي، والأديب السعودي أحمد عبدالغفور عطار. فاما إهداء الديوان الى «هيكل» فينطوي على دلالة هامة في مسيرة الأدب السعودي، فقد كتب هيكل، رحمه الله، مقدمة لكتاب «وحي الصحراء» الذي أصدره الأديبان محمد سعيد عبدالمقصود، وعبدالله بالخير، وكان يضم طائفة من الاختيارات الأدبية لأدباء سعوديين، كانوا في حكم الناشئة حين صدر هذا الكتاب عام ١٣٥٥هـ عن «دار عيسى البابي الحلبي بمصر». وكان لهذه المقدمة أثرها في تشجيع ذلك الجيل المجدد من الأدباء السعوديين، فضلا عن اشادة هيكل بنتاج هؤلاء الشباب، وتقديم بواكير نتاجهم الابداعي الى القراء والنقاد العرب. هذا فضلا عما كتبه هيكل عن الأدب السعودي والأدباء السعوديين في كتابه «في منزل الوحي».

اما تقديم حسن كامل الصيرفي للديوان فله هو الآخر دلالته، فان الصيرفي احد أعضاء «مدرسة ابولو» ذات الدور الكبير في تقديم المدرسة الرومانسية من شعراء مصر. فتقديم الصيرفي، اذن، يشير الى الوجهة الفنية التي اتجه طاهر زمخشري صوبها، وهي الوجهة الرومانسية.

أما تقديم احمد عبدالغفور عطار لديوانه «أحلام الربيع»، فينطوي على دلالة التضامن والتآزر بين أفراد مسيرة الريادة من الأدباء السعوديين، ويؤكد وحدة الاتجاه الفني، بقدر ما يؤكد الحرص على تقديم هذا الأدب الى الجماهير المتذوقة للكلمة الشاعرة.

ولسوف نرى أن أحمد عبدالغفور عطار، الذي قدم لديوان زميله الزمخشري، سوف يصدر له ديوانه «الهوى والشباب»، في نفس العام الذي صدر فيه ديوان «أحلام الربيع»، وهو عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م، وان كان هذا الصدور قد أتى في وقت لاحق. ولسوف يستمر طاهر زمخشري في مسيرة الابداع الشعري، كما سوف يتجه عطار الى مسيرة البحث والدراسة والنقد الأدبي.

بقي القول بأن ديوان «أحلام الربيع» لم يكن أول دواوين زمخشري وحده، بل كان أول ديوان لشاعر سعودي، هذا من حيث الصدور والنشر بطبيعة الحال، اذ قبل صدور هذا الديوان لم يجد النتاج الشعري سبيله للظهور والذيوع الا من خلال مجاميع الاختيارات، ممثلة في «وحي الصحراء» السابق ذكره.

وفي «أدب الناشئة الحجازية»، الذي أصدره الرائد الكبير الشيخ محمد سرور الصبان، رحمه الله. كما كانت الصحف والمجلات هي المجال الثاني من مجالات النشر والذيوع لهذا النتاج الشعري، الى جانب كتب الاختيارات لأدباء سعوديين. ولقد انطوى صدور ديوانه «أحلام الربيع» على دلالتين اثنتين، هما:

- انه شجع ابناء جيله من الشعراء السعوديين على نشر نتاجهم في دواوين، والتخلي عن عامل الرهبة الذي كان يغل خطاهم.

○ انه دل على نشاط طاهر زمخشري، واحتفاله بجمع أشعاره، والعناية بنشرها، وهو ما يتميز به على سائر قرنائه، حتى غدا شعره المجموع في دواوين، أغزر ما عرفه الباحثون في ديوان الشعر السعودي الحديث. وقد حرص زمخشري — فيما يبدو — على أن يقدم لقارئه أكثر ما أبدعته قريحته، دون أن يخضعه لكثير من الحذف والتنحية، مقدما نفسه الشاعرة بكل مراحلها، وبكل خصائصها، وبكل مستوياتها، وبالشكل العفوي الذي عرفه القارىء في ابداع زمخشري ذاته، مطابقا لشخصيته السمحة والتي تنطوي على قدر كبير من العفوية أيضا.

وقد اتبع طاهر زمخشري تقليد «الإهداء» في الأعم الاغلب من دواوينه الشعرية، فبينما يهدي ديوانه الأول الى «الدكتور محمد حسين هيكل»، نراه يهدي ديوانه الثالث الى «المربي الكبير» مؤسس مدارس الفلاح «الحاج محمد علي زينل رضا»، كما يوجه الشكر له، وللشيخ محمد سرور الصبان الأديب السعودي، الذي رعى جيل طاهر زمخشري من الأدباء. كما يهدي ديوانه الخامس «على الضفاف» الى ابنه فؤاد ويكتب اليه مقدمة هذا الديوان. كما يتوجه بكلمة الى ابنته «ابتسام» في ديوانه «عودة الغريب». يذكر بالعرفان فضل امها عليه، وحفزها لهمته، وتبديد كل سحابات الحزن من اعماقه، وكيف اختطفها الموت، ليفقد برحيلها سندا له في رحلة الحياة.

وهذه الاهداءات والمقدمات لدواوينه تلقي الضوء على طبيعة علاقاته، وأصدقائه، وذوي الأثر الباقي في حياته ومسيرته الفنية. كما أن جانبا من مقدماته هي سطور هامة في سفر «سيرته الذاتية» حول مرضه ووفاته لزوجته، ومرض هذه الزوجة، ووفاتها، بما أثار قريحته بالرثاء والوفاء، هذا الى حب زمخشري الكبير: حبه لأبنائه، وحبه لزوجته، وحبه لأصدقائه، وحبه لوطنه، وحبه لكل بلد رحل اليه، وحط على اديمه رحاله، وتذكره بالوفاء والعرفان لذوي الأيادي البيض عليه في عسره ويسره، وفي مكرهه ومنشطه. وكل هذه الجوانب التاريخية والانسانية، في حياة زمخشري وشخصيته ترتبط اوثق الارتباط بابداعه الشعري.

زمخشري وآفاق التجربة الشعرية

لقد اتسعت آفاق التجربة الشعرية لدى طاهر زمخشري، وتعددت مناحي هذه التجربة في مصادرها ومواردها، فهو يشكو ويتغزل ويمدح ويرثي، ويهجو، وينظم في المناسبات، وفي الاخوانيات، مهنئا بزواج، أو بميلاد، أو متشفعا لدى كبير في أمر يجلب نفعا له أو لصديق، أو يدفع عنه ضرا. وهو يقول الشعر الديني مناجيا مبتهلا، أو متحدثا عن الأماكن المقدسة، أو مادحا الرسول الكريم — ﷺ — في مولده أو هجرته. وهو يذيع شعره، أو يردد القول فيه: في المحافل العامة، وفي المجالس الخاصة، وعلى صفحات المجلات والصحف، وفي الاذاعة. فعالم التجربة الشعرية لديه عالم متسع باتساع علاقاته ومودداته، بل وباتساع آفاق عواطفه الانسانية التي لا تعرف للحب حدودا.

وفي دواوين طاهر زمخشري نلتقي بأسماء أصدقائه: حمزة شحاته ومحمد حسن فقي، وضياء الدين رجب وحسين سرحان. ونلتقي باسماء: طه حسين من الأدباء، ومحمد مندور من النقاد وغيرهم من مفكرين وأدباء وفنانين، فهو يذكر هؤلاء جميعا في مقام الاشادة والاعجاب، أو في موقف الرثاء والحسرة، أو في مجال المشاركة والمواساة في محنة مرض أو نحوه.

كما نلتقي بالقادة الكبار من الساسة والزعماء، داخل الوطن السعودي وخارجه. وسوف نتناول — تفصيلا وتحديدا — معالم هذه الآفاق الابداعية لدى طاهر زمخشري.

شاعر الغزل

وهو من الأغراض الشعرية البارزة لديه. وأهم ما يتسم به غزله انه حافل بأطياف الطبيعة، فهو دائما ممتزج بالورود والأزهار والحدائق والعطور الفواحة الأرجة، والأصيل المخضل بحمرة الشفق، والبحر المائج الهادر بأمواجه وأثباجه. وكل هذه العوالم تبدو شخوصا حية، تتكلم، وتحس، وتعقل.

يقول زمخشري في ديوانه «على الضفاف» من قصيدة «ذات الرداء الأحمر»:

من خيوط الاصيل في مغزل الفتنة حاكت لها المحاسن ثوبا
وعلى نسجه المورّد طاقات شذاها الفواح يختال سُحْبا
وبأفوافه الفتون بشاشات تهادت بها دلالا وعُجْبا
ويفيض الصفاء منه ابتسامات صداها يشع في الأفق شهْبا
وتهادت به يسابقها العطر ويمتد للمفاتن... دربا
وضحوك السّنا يموج به الإغراء في طرفها فيرقص هدْبا
وعلى خطوها تميس الأغاريد فتذكي بين الجوانح حُبا
ومعاني الجمال في طرْفها الناعس سلم يقيم للصب حربا
يتخطى الشغاف بالنظرة العجلى ليصطاد وقعها من تصبّى

فالصورة هنا تمثل لوحة حية لعناصر الطبيعة، وكأن الشاعر وصاف لا متغزل، أو كأنه يصف «تجربة الحب» في عالم الطبيعة لا عالم البشر، فهو يشخص عوالم الطبيعة. بالقليل من تعابير الغزل مثل كلمات «الفتنة — يختال — دلالا وعُجْبا — المفاتن — الاغراء — حبا — الصب — تصبّى..». فالحب في هذه اللوحة، غائص في بحر زاخر من عوالم الطبيعة الحية. وقد كان لهذا المنحى من الغزل الممتزج بالطبيعة او الغائص في بحرها، نقول: كان له أثره في اشاعة جو من العذرية والصفاء الشفيف في تجربة الغزل لدى طاهر زمخشري.

ولقد جاءه هذا الامتزاج بالطبيعة من تأثره بالمدرسة الرومانسية بعامة، ومن شعر علي محمود طه بصفة خاصة، والذي أهداه طاهر زمخشري قصيدته «انشودة الملاح» بقوله: مهداة لصاحب ديوان «الملاح التائه»: الشاعر الكبير الاستاذ علي محمود طه المهندس». وتأتي هذه القصيدة المهداة الى صاحب ديوان «الملاح التائه» بمثابة اعلان من طاهر زمخشري عن وجهته الفنية في الغزل خاصة، وفي سائر الاغراض بصفة عامة، خاصة وانها ترد في أول ديوان من دواوين طاهر زمخشري، وهو «احلام الربيع». يقول زمخشري:

الدجى بحر وقلبي سابح
والى أين سيمضي؟ لست أدري؟
والنجوم الزهر في عليائها
شفق للغيب بالأقدار تجري
وحواشي الليل من ظلمائها
تملأ النفس باهوال وذعر

وهي قصيدة تلخص في منحاها الصياغي خاصة، المعالم الأساسية في شعر زمخشري، وتؤكد تأثره الواضح بشعر علي محمود طه، وخاصة في ديوان «الملاح التائه».

ويبدو أن زمخشري قد راقته محاولة «المعارضة الشعرية» لبعض قصائد الغزل في التراث الاندلسي، فعارض «نونية ابن زيدون» التي عارضها أحمد شوقي. يقول زمخشري في قصيدته «اماني» من ديوانه «على الضفاف».

ما ضرَّ لو حكمتْ عدلا ليالينا
فاسعفتنا بصفوٍ من أمانينا

وناغمتْنا بما يـرْوي جوارحنـا
من اللحـون التي تُجـرِي هوامينـا
انا احتملنا الهـوى نارا مؤجّجـة
بـين الضلوع تلهّت في حواشينـا
وحرّقتنـا فذبنـا في لواعجهـا
وارّقتنا فأدمت مـن مآقينـا
وللّواعج لـو يدري الخلـيُّ لظـىً
نهيم في لُجّـه المـوار راضينـا

والجو الفني العام — من حيث الصياغة — مزيج من نونية ابن زيدون — وهي الاصل المحكي — ونونية أحمد شوقي. ولكن نونية زمخشري — وان خلت من صور الطبيعة التي حفلت بها نونية ابن زيدون — الا أن الصياغة فيها تراثية المنحى مفردات وتراكيب. وبينما تطالعنا غزليات طاهر زمخشري لينة الصياغة، هامسة الكلمات، مضمخة بعطر الطبيعة ورؤاها الحالمة، تأتينا نونية طاهر زمخشري هنا: نارا مؤججة، وحرقة تذوب فيها اللواعج، ولظى موّارا، وكأن الشاعر اراد هنا أن يثبت مقدرته على الصياغة التراثية، ومحاذاة روائع الغزل في التراث الشعري القديم. وكلها حوافز «فن المعارضة» في شعرنا العربي: قديمه وحديثه.

واذا كان «تيار الاغتراب»، قد مازج تجربة الابداع الشعري لدى زمخشري في ابعادها المختلفة، فان تجربة الغزل عنده لم تسلم من هذا الاحساس الاغترابي، الذي يجسد معلما من معالم الرومانسية في ابداعه، وابداع جيل الرواد من رفاقه. ففي قصيدته «في الغربة» من ديوانه «معازف الاشجان» يقول:

أنا في غربتي اهيم بفكري حيثما أنت يا هدى الحيران
يا نعيم الحياة يا بلسم المتـــاع يا معزفي لأحلى الأغاني
وغبـــار السنين يملأ عيني وكحـــل السهاد في اجفاني

* * *

أنـــا في غربتي وأظمـــأ بالشـوق وكأسي تفيض بالحرمان
وبعيني غشاوة تحجب الضـــوء وقلبي يذوب مما يعانـي
تترامـى بـي الدروب على التيـــه فلا يعـرف الظـلام مكانـي

والتيار الاغترابي في هذه الأبيات الغزلية ممزوج بالاحزان والحيرة والحرمان والسهاد والتيه والظلام، وكلها تؤكد عمق الانتماء الرومانسي لدى زمخشري. والحب في خضم هذا التيار ليس قيثارة مرحة الأنغام، مضمخة بعطر النشوة، بل هي قيثارة حزينة الانغام. ويمكن أن نطلق عليه «الحب الاغترابي» والغزل هنا ليس فرصة للتعبير عن عواطف الحب، بل هو وسيلة للتعبير عن مشاعر الحزن، وأنين الأسى الذي فاضت به قصائد الشكوى في دواوين طاهر زمخشري.

وفي غزليات زمخشري ضرب آخر من القصائد أشبه بما يسمى — لدى القدماء — «طيف الخيال»، حيث يحكي الشاعر تجربة غزل وقعت له في المنام، أو في حلم من أحلام اليقظة، ويعبر لنا في ختامها عن حزنه، لأن لحظات المتعة قد تلاشت مع زوال خيوط الحلم الجميل. وفي دواوين طاهر زمخشري قصائد من هذا القبيل مثل: «حلم»، في ديوان «همسات» ومثل: «في محراب الخيال»، في ديوان «احلام الربيع». ومثل: «عروس الأحلام» في ديوان «على الضفاف». وتنتهي قصيدة «حلم» بقوله:

وفتشت مــن حولـي اذا طيف غادة
وطيف الغوانـي فـي المنـام ختول

مع أن مطلع القصيدة، وما تلاه من أبياتها جميعا لا يوحي بأن الشاعر يحلم. بل يأتي البيت الأخير مفاجأة للقارىء بعد ايهام الشاعر له، بأنه يطالع موقفا حقيقيا وليس «طيف الخيال».

ولا نعدو الحقيقة لو قلنا: ان غزل طاهر زمخشري يعكس عالمه النفسي الزاخر المتنوع، ويعكس طبيعة نظرته العفوية للانسان والطبيعة والحياة، كما يعكس تنوع الأداء الشعري لديه في الصياغة والصورة والموسيقى: حداثة واصالة.

الشكوى

والمراد بها تعبير طاهر زمخشري المتأجج عن أحزانه وكآبته واغترابه ويأسه وحيرته وجدب الحياة من حوله، وهذه الشكوى المتأججة الموّارة، وان مازجها نزوع الى اليأس والقنوط، كثيرا ما تنتهي الى شيء من اللواذ بالطبيعة، أو اللجوء الى عالم روحي شفيف زاخر بالدفء والرجاء والتحدي. ويمكن القول بأن «الشكوى» في شعر زمخشري قد مرت بمرحلتين:

الأولى: وكانت فيها حادة هادرة، مجللة بالقنوط واليأس، يصرح بهما الشاعر دون تحفظ.

والثانية: وكانت لا تقل عن الأولى حدة، غير أنها لم تكن مجللة باليأس، ولم يكن الشاعر يصرح بقنوطه واستسلامه وانما كان يتذرع بالصبر، ويتشبث بالاصرار والتحدي، وكثيرا ما كان يمزج اصراره وصبره وتحديه بنبرات من سكينة المؤمن، وخشوع العابد اللائذ بحمى خالقه.

وديوان «احلام الربيع» يمثل المرحلة الأولى. بينما تمثل سائر دواوينه الأخرى المرحلة الثانية، على تفاوت وتباين في مستوى الحدّة، أو مستوى السكينة والتحدي. ولهذا فان هذا الديوان يكاد يخلو — جملة — من الشعر الديني. ولا شك أن ديوان «أحلام الربيع» يمثل بواكير انتاجه وابداعه، في مرحلة الشباب الثائر الذي لا يستطيع أن يسيطر على نوازع الثورة والجموح، ولا أن يلوذ بنفسه الى مرفأ السكينة والأمن الروحي يقول في قصيدته «ثورة النفس»:

حيــاة كلهـــا نكـــد وعمـــر كلـــه بـــدد
ودهـــر حالـــك ابـــدا بليل طولـــه الأبـــد
فلا صبـــح أُسَرُّ بـــه ولا الآلام تتئـــد
بقلبي مـــن عواصفهـــا جحيم بـــات يتقـــد
بنفسي مـــن لواعجهـــا خضـــم واللظـــى الزبـــد
يجني مـــن لوافحهـــا سعير مالـــه أمـــد

فالصورة هنا تتسم بالتوتر والانفعال الحاد الى غير حدود، والتعبير — تبعا لذلك — يصطبغ بصبغة «ميلودرامية» وخاصة في مفرداته مثل: الجحيم واللظى والسعير. ونتيجة لذلك كله فقد وقع التعبير الشعري في اسر المباشرة، وافتقد القدرة على التصوير والهمس والتحليل المقنع.

وفي قصيدة «زفرة» نطالع قوله:

دنيا من اليأس لا صبح تسرُّ بـه
وحالكٌ دامسٌ في طيّـه العـدم
اذا الحياة قست صالت فما رحِمـت
وغال شرخ الشباب الشيبُ والالـمُ
فيا فؤادي الذي أدميتُ صفحته
ان الحياة خؤون مالها ذِمـمُ
فهات لي كأسها احسو ثمالتهـا
مـرُّ الحياة وصفوُ العيش منسجمُ
ويا زماني الذي ما زلت اندبـه
ما عدت ارجوك هذا الجسم منهدمُ

والأبيات هنا يصرح فيها باليأس وسوداوية النظرة. وان كنا لا نحس هنا بالايقاع اللاهث السريع الذي نحسه في الأبيات الأولى. كما أن الصورة الفنية أكثر نضجا، وان كنا نستشعر ضعفا واضحا في عجز البيت الأخير.

فاذا انتقلنا الى ديوان آخر، لنرصد معالم المرحلة الثانية طالعتنا في ديوان «عودة الغريب» تلك النبرة المتفائلة المضيئة في أكثر من قصيدة أو مقطعة. يقول في قصيدة «صوت الحياة»:

فان لاقيتُ في أمسي الـرزايـا
فان غـــدي يلوّح بالهِبـات

وفي قصيدة «غنوة» يقول:

سأشبع في الدنيــا الصفـــاء
ممـا تجيش بـــه الحنايـا
ابدا يطالعنــي الضيــاء
بـرؤى تخفف مــن أساىَ
والقـلب اسكبـــه غنــاء
والرجـــع يحملـــه مناىَ

وفي رباعية «آمال» يقول:

فان ساءني دهري بما لست أشتهي
فقد سره أنَّ العـرامَ شديد
به اقتل اليأس الذي جَـدّ هولُـه
وأقتحم الآفــاق وهـي سدود

ولا نتجاوز الحقيقة اذا قررنا بأن ديوان «عودة الغريب» بالذات من أكثر دواوين زمخشري تفاؤلا وابتساما.

الـرّثـاء

لقد رثى طاهر زمخشري شخصيات عامة: منهم الساسة ومنهم الأدباء والفنانون، وبعض هؤلاء كانت تصله بهم وشائج المودة والاعجاب، مما منح تجربة رثائه اياهم توهجا ونبضا. هذا بالاضافة الى رثائه زوجته وأمه ووالده وأصدقاءه غير أن رثاءه زوجته أولى مراثيه بالدراسة لاعتبارين أحدهما فني، فهذه المراثي هي أصدق مراثيه، واحفلها بقيم الوفاء والبر والحب والعرفان. واما الاعتبار الثاني فهو اعتبار الكم، اذ ان مراثيه في زوجته تبلغ في ديوان «أنفاس الربيع» ثماني قصائد، خصها — مع مرثيته في أمه — بعنوان مستقل هو: «الى روحها» وقدَّم لها جميعا بقوله: «نعم هي زوجتي وشريكة حياتي وأليفة روحي، لقد كانت تسير معي في أول الطريق، وقطعت هي الشوط، فنامت في مقرها الأخير راضية مرضية. وأما أنا فما زلت أسير، وانها لدموع اذرفها وسيذرفها معي كل من فقد عزيزا عليه». وتدور المراثي حول الأفكار التالية:

- التذرع بالصبر ومجالدة صروف الحياة، ورضا المؤمن بقضاء الله.
- وصف معاناة الزوجة في مرضها الطويل، وبخاصة في الليلة الأخيرة.
- الوفاء لعهدها، والاقرار بفضلها.
- الاشادة بتفاؤلها الدائم وسعادتها الغامرة، برغم المعاناة الطويلة للمرض.
- تصويره آلامه واحزانه بعد فقدها ورحيلها الأبدي.

ولنقف عند بعض هذه المراثي، ولتكن أبياتا من قصيدة «يا ليالي»، يقول الشاعر.

زهرتي انت مـــا سقيتك الا — هاطلا مــن دمي الابيّ الشهيد
دميتي انت مـــا عهدتك الا — ملكا في يديه فجــر سعودي
روضتي انت مـــا اتيتك الا — رف قلبي مغـردا بالنشيد
دوحتي انت مـــا تفيأت الا — بك مــن عاصف الحياة العتيد
تنشرين الضيــاء حولـي وترعــين خيالي وتلهبين قصيدي
كلمـــا احلولكت حياتي تبسمــت فأيقظت عزمتي مـــن جديد

* * *

وتقولين: موكـب اليمـن آت — في حواشيه باسمات الجـدود
فترنــم بأغنيات الأمانــي — وتـرقب هلال عمــر سعيد

* * *

لو يعيد البكاء ميتا لأغرقت جفوني بدمعتي كي تعودي
او يرد الفناء نفسا لساومت وقـدمت في القبيل وجودي
بيد أنـى وسدتك الترب قسرا — نحن مـن قبضة الردى في قيود

والأبيات لا تقف عند أعتاب البكاء والأحزان، وانما تتجاوزها الى قيم انسانية خالدة هي قيم الوفاء والحب، فالشاعر هنا يجسد لنا قيم الأسرة كما ينبغي أن تكون، فالزوجة متفائلة ابدا باسمة أبدا، تدفع بزوجها الى معترك الحياة، وتزيل من خطاه تردده ورهبته. والزوج لا يلهيه صخب الحياة بعد رحيل زوجته عن التغني بشمائلها والعرفان لها. وتقترب بعض الأبيات من عالم الغزل، ولكنه يلتئم مع نسيج الرثاء، وذلك حيث يخاطب الشاعر زوجته الراحلة بالزهرة والدمية والروضة والدوحة. ولعل هذه القصيدة هي أروع مراثيه الثماني في زوجته اذ ينتقل الشاعر فيها من جو الى جو، ومن معنى الى معنى، كما يلف القصيدة جو درامي: فيه الاحداث والمواقف والحوار والشخصية الواضحة الملامح. ولعل من اروع صور «الرثاء» عند طاهر زمخشري قصيدة «صبراً» والتي قدم لها بقوله: «وسألت الطبيب عن علتها فارسل آهة طويلة... واردف بقوله: انها علة السلال» ومن أبياتها:

يقولون لي صبراً فقلت: وهل لها
سوى ذاك؟ إن الصبر بالحر اخلقُ
عبرت خضماً من مصائب جُمِّعت
ولي من جميل الصبر يا نفس زورقُ
وما بحت بالشكوى لان عزائمي
تخوض المنايا لا تهاب وتغرق
فيكف ببحر سوف يحلو اجاجه
متى كانت الانسام فيه تصفق
معطرة الانفاس فواحة الشذا
بعطر الاماني وهي تندى وتعبق
فيا أيها الربّان خض بي ولا تخف
عبابا وسر بي ليس في الموت مأزق

وتختلف هذه المرثية عن سابقتها في أنها — وهي مرثية — تتجرد تماما عن البكاء، بل وتتجرد عن كل الأحزان، وتتسربل بالصبر والمجاهدة والاستبسال. وهذه الصورة النفسية تجسِّد في عمومها «موقف حياة» عند طاهر زمخشري، حين تخلى عن نزعات الصراخ واليأس والهلع، ولاذ بالصبر والسكينة المؤمنة الخاشعة. وهذه نغمة جديدة في الرثاء في شعرنا العربي الحديث.

ثمة ملاحظة أخرى في هذه القصيدة، وهي أن الشاعر قد جنح الى الصياغة التراثية، ذات الفخامة والرصانة وان خانته هذه الرصانة،

فأسلمته الى شيء من التكلف وضعف النسيج اللغوي، والمباشرة الساذجة احيانا، كقوله:

* شراعي صبري في الاواذي يخفق *
* ومن يعتصم بالصبر فهو الموفق *
* رسو سفيني عن قريب محقق *

الشعر الديني

ويمكن ان نقسمه الى ثلاثة أنواع:

- شعر الابتهال والمناجاة.
- شعر المناسبات الدينية.
- شعر الحرم والأماكن المقدسة.

ويمثل النوع الأول أكثر ما في دواوين طاهر زمخشري من القصائد الدينية، اذ تطالعنا قصيدة «النفس المؤمنة» في ديوان «همسات» وقصيدتا «الله أكبر»، و«رباه» في ديوان «اغاريد الصحراء»، كما تطالعنا في الديوان نفسه قصيدة أخرى بعنوان «النفس المؤمنة»، وهو عنوان تكرر لقصيدة سابقة، ورباعية «الحمدلله»، وقصيدة «رباه» وكلها في ديوان «عودة الغريب»، وقصيدة «دعاء» في ديوان «نافذة على القمر».

وفي هذا اللون من الشعر الديني يكثر الشاعر من اعلان التوبة والاقرار بهول الذنوب والخطايا، ويبذل الرجاء العميق في غفران الله وصفحه وعفوه.

ايه يا نفس الى الله انيبي ثم توبي
واذا وسوس شيطاني بإثم لا تجيبي
واذكري الله ففي صوتك تكفير ذنوبي
وثقي ان وراء الغيب علام الغيوب
وهو الله

وكأن هذا الضرب من المناجاة والضراعة بمثابة المتاب عن تجاوزات في أشعاره وفي حياته، ومن هنا ألح الشاعر في مناجاته واستغفاره للمولى جل وعلا.

رباه كفارتي عن كل معصية — اني أتيت وملء النفس ايمان
اتيت اطرق بابا، كل مجترم — اتاه يرجع عنه، وهو جذلان
قد استضاف كريما لا يمنّ بما — يعطي، وفي منّه للعبد رضوان
فاغفر وسامح وتب واصفح ففي كبدي — الإثم يصرخ والإحساس يقظان

أما شعر المناسبات الدينية فيتمثل في بعض ما قاله الشاعر في ذكرى الهجرة النبوية، أو في ذكرى المولد النبوي. ففي قصيدة «موكب النور»، التي نظمها الشاعر بمناسبة ذكرى المولد الشريف، يشيد بهذه الليلة. ويمدح النبي، ﷺ، ويشيد بشريعة الاسلام:

هتف البشر تحت جنحها والرجاء — ليلة دون حسنها اللألاء
فهي في الدهر ليلة غراء — ليلة والصباح دون سناها

الى أن يقول:

بالذي طهّر النفوس من الرجس، يهدي به الورى يستضاء
بالنبي الأمي بالمصلح الفذ — بمن في أكفه النعماء
بالذي كان هديه تنزيلا — محكم القول في بيانه لألاء
كل آياته مناهل للخير — وفيض يعبّ منه الظماء

وتأتي قصائد «شعر الحرم» اشادة بالحرم الشريف وبالأماكن المقدسة، كما تأتي بعض قصائد هذا اللون ممزوجة بشعور الفخر والانتماء، لكون الشاعر من أبناء مكة التي عرفت بمهبط النور، ومنزل الوحي. وبذلك يمتزج الشعور الديني بالشعور الوطني في هذا اللون من القصائد. ومنها قصيدة «موطن القداسات»:

منبع الاشراق، صداح المنى
يملأ الدنيا ضياء هاهنا
والقداسات السخيات الهبات
منهل يجري بفيض البركات
يعبر الاجيال من ماض لآت
بالهدى فاض نميرا من هنا
يغمر الدنيا جلالا وسنا
وهو ينساب دفوقا محسنا

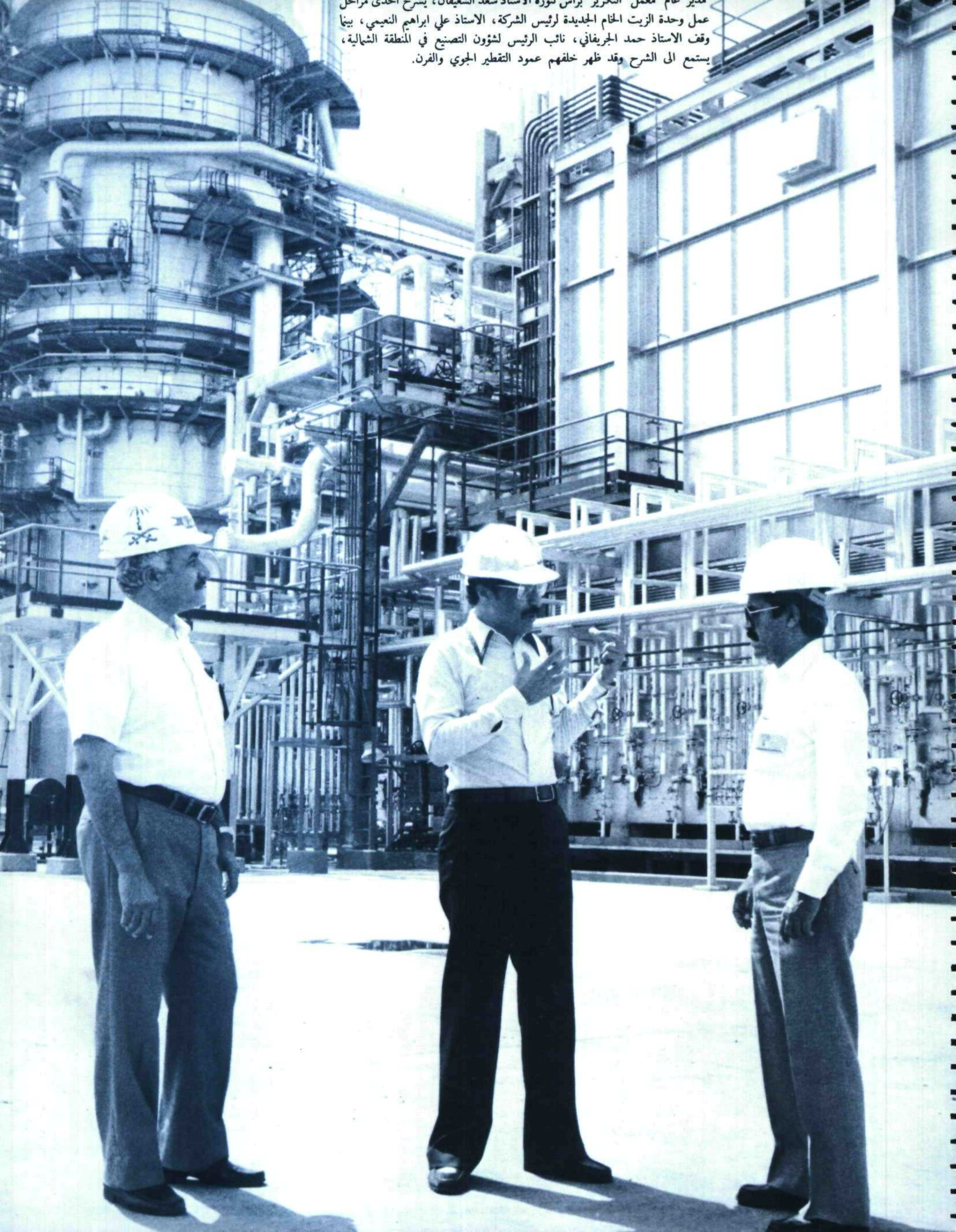
ونظرة عامة الى الشعر الديني لدى طاهر زمخشري، تسلمنا الى بعض الملاحظات نوجزها فيما يلي:

- ان اقوى الوان هذا الشعر بحق هو اللون الأول أي: المناجاة والابتهال حيث يستشعر المتلقي صدق المعاناة وتوجهها، وان الشاعر مدفوع من أعماقه الى القول فيه.
- ان طاهر زمخشري في النوعين الأخيرين، وهما: شعر المناسبات الدينية، وشعر الحرم والاماكن المقدسة، لم يعمد الى ربط «التجربة الاسلامية» بواقع المسلمين، وهو واقع دام اليم.
- اذا كان طاهر زمخشري في شعر الابتهال والمناجاة هامسا همس العابدين في محاريب الضراعة، فانه في أغلب شعر المناسبات الدينية، والأماكن المقدسة كان خطابي النبرة تقريري الأداء، مرددا للشائع السائد من معاني هذين النوعين.

وبعد، فتلك كلمات في شعر طاهر زمخشري، الذي عاش أسير الكلمة الشاعرة، وشدا بها للانسان، وظل يحمل قيثارة الرومانسية الحالمة، ويتشبث بالنمط القصيدي في وزنه وقافيته. ينوع ويجدد فيه، ولكنه أبدا لم يخض في بحر أسلم شعرنا العزيز علينا الى غير المرافىء الآمنة □

تصحيح

وقع خطأ مطبعي سهوا في الفقرة الأولى من مقال «عبدالله بن ادريس شاعرا..» المنشور على الصفحة ٣٢ في عدد جمادى الأولى ١٤٠٧هـ. وقد جاء فيه أن «عبدالله بن عبدالعزيز بن زامل بن ادريس، ولد في قرية قرمة احدى قرى مقاطعة الدواسر باقليم نجد..» والصواب هو أنه ولد في قرية حرمة احدى قرى مقاطعة سدير باقليم نجد. وكان للأستاذ ابن ادريس نشاطات ومساهمات فكرية على مستوى العالم العربي اضافة الى نشاطاته الفكرية داخل المملكة.



مدير عام معمل التكرير برأس تنورة الاستاذ سعد الشعيفان، يشرح احدى مراحل عمل وحدة الزيت الخام الجديدة لرئيس الشركة، الاستاذ علي ابراهيم النعيمي، بينما وقف الاستاذ حمد الجريفاني، نائب الرئيس لشؤون التصنيع في المنطقة الشمالية، يستمع الى الشرح وقد ظهر خلفهم عمود التقطير الجوي والفرن.



جزء من عمود أثري في جرش
راجع مقال:
«الأردن يحتضن مدن حلف الديكابوليس»